

البكاء بصمت

(مجموعة قصصية)

شموع بنت محمد الزويهري

العبيكان
Obekon

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزويهري، نوال محمد

البكاء بصمت./ نوال محمد الزويهري. - الرياض، ١٤٢٨هـ

٢٠٨ص؛ ١٤ × ٢٠سم

ردمك: ١-٣٨٧-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- القصص القصيرة العربية - السعودية أ- العنوان

١٤٢٨/ ٨٢٥٢

ديوي ١٩٥٣، ٨١٣، ٠

رقم الإيداع: ١٤٢٨/ ٨٢٥٢

ردمك: ١-٣٨٧-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

التوزيع: مكتبة العبيكان
Obeken

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٠١٨ ٤١٦ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٠١٢٩ ٤٦٥

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

الناشر: مكتبة العبيكان
Obeken للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٠٨٨ ٢٩٣٧٥٨٨

ص.ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧



obelika.com

obeikandi.com

مقدمة

هي انكسارات ...

سكنت بعض الأفئدة فحولتها إلى أشبه ما تكون بكومة مشاعر مطعونة
وكرامات متساقطة...

نحن لسنا أمام جيل من أجيال مدرسة «أبولو» ولكننا أمام الواقع المرير
لبعض الدموع الحائرة...

شموع الزويهري

Candil - zo Jawab.com

obeikandi.com

آه يا ولدي...!!

بكت وهي تشكي له آلامها... رفته إيصالها إلى المستشفى رجاء
يتخلله دعاء صادق من أعماق أحشائها الحنونة!..

أشار إليها بوجهه الذي تتخلله خطوط الصرامة والغضب: هيا... هيا!!..

جلس خلف مقود السيارة وهو يتضجر ويزمجر.. كل يوم.. كل يوم
مستشفى... لقد تأخرت عن مواعيدي... وبجوّ خانق أخرجته بنفثات
ضبابية كريهة من الدخان الكثيف قاد السيارة بسرعة جنونية...
وفجأة توقف!!!

وقال: تفضلي هذه المستشفى؛ هناك قادها وأجلسها على كرسي
مرصوص بجانيبه عدد من نوعه... ودسَّ في يدها ورقة من فئة الخمسين
ريالاً وكرتاً يخص إحدى المؤسسات... وأخبرها بأن هذا الكارت هو رقم
دخولها العيادة!!!...!

وما عليها سوى الانتظار حتى يُنادى على اسمها...

وانطلق كالريح العاتية ينهب الأرض نهياً...

ولكن إلى أين ؟؟؟.

مضى الوقت ثقيلاً على هذه المسنة البائسة، وعقارب الساعة تمضي
ثوانيتها باضطراد لا تعلم عن لحظات الجحود في حياتها، وهي تسيّر نحو
غدٍ غامض ليس له وضوح..

قاتم.. يتساوى بدرجة نظرها الضعيف، فهي لا تكاد ترى غير أبواب
موصدة فهتمت منه أنها العيادات المتخصصة!.

وطال الأمل في نفسها، فلم يُنادِ على اسمها بعد!.

والليل طويل وما لبثت الحركة أن سكنت وهدأ الضجيج وتلفتت لعلها
تجد من تكلمه... لكن لا أحد فالكل ذهب!.

وفي تمام الثانية عشرة ليلاً دارت الأفكار في رأسها... ربما... وربما...
ولم يفقها إلا صوت امرأة تُنادي عليها:

يا خالة... يا خالة...

تبدد السكون في أذنيها ونطقت من؟.

- هل جاء دوري يا ابنتي؟.

- فردت المنادية: أي دور؟.

- دوري، فأنا أراجع عيادة السكر!.

وصعقت المرأة لما سمعت، استفسرت منها وعرفت أن ابنها قد أوصلها
إلى المستشفى، وهي تنتظر دورها الذي طال!.

صمتت محدثتها برهة ثم، وبنوع من الحيلة استطاعت إقناعها بأن
الدكتور ذهب في حالة عاجلة، ولن يحضر قبل غد... ورجتها بأن تأتي
معها؛ لتتصل بابنها!..

وافقت العجوز بصعوبة وذهبت معها.

لم يستقرّ بها المقام في منزل هذه المحسنة حتى أخبرتها بالحقيقة وأن
ابنها قد وضعها في إحدى الأسواق التجارية وأن الأبواب التي رأتها ماهي
إلا محلات تجارية وطلبت رقم هاتفه واسمه...

صعقت العجوز لما سمعت ... وبنحيب يتفطر له القلب رفضت إعطاءها
أي معلومات عنه!.

مضى أسبوعان على وجودها عند هذه العائلة الكريمة ... ولكنها بدأت
تشعر بثقلها على هذه الأسرة الصغيرة، فطلبت منهم مشكورين إيصالها
إلى دار المسنين...

تمّ لها ما أرادت وصارت إحدى نزيلات الدار، وكانت هذه المحسنة
تزورها كل ثلاثة أيام وتؤانسها!!.

وبعد عدة أسابيع من إقامتها في هذه الدار ذهبت كالعادة لزيارتها ولكن!
لم تجدها بل وجدت سريرها خالياً!!.

سألت عنها فأخبروها بأنها توفيت أمس، وهي تطبق بين أناملها على
مبلغ الخمسين ريالاً والكارث بشدة!

بكت وتأمّلت حالتها، فعرفت بأن لبعض الجروح آلاماً لا يمكن أن
تسكن، خاصة ممن سكنوا القلوب، فلم تتحمل المعاناة، وفضلت الرحيل
بصمت!!!

obeikandi.com

جراحات بلا موعد!!

قد نسافر كقطرات مطر تائهة تبحث لها عن جفاف.. قد تهاجر
مخيلاتنا وأمانينا بل وأحلامنا بعيداً عن الواقع المر لما نعيشه حقيقة...
ولكن حتماً سنفتق ونبتلع أوضاعنا وأوجاعنا شتاً أم لم نشأ!
هذه أحداث حقيقية يعيشها أصحابها، وهم يجاهدون لحظات الفرع
لاهثين؛ بحثاً عن الأمان... والاستقرار.

شق صياح الديك سكون الصمت معلناً انبلاج فجرٍ جديد الله وحده
يعلم ماذا يحمل بين جنباته من أحداث دامية تخيم على منزل تلك
المسكينة البائسة!

انتصبت عائشة تحمل وجع الأيام واقفةً تهلل وتحمد الله على كل حالٍ
هي فيه ...

لقد صدمتها الأيام بوفاة زوجها الثاني بعد وفاة أخيه قبله بسنوات
مرت، كان حصادها اثني عشر طفلاً انضم بعضهم إلى بعض يتقاسمون
أمّاً واحدة وأبوين.

بدأت الأصوات تتمازج في بهو المنزل العتيق ودبت الحركة في أركانها
إلا أن بعض هذه الحركة يشوبها نوع من الذهول... الحيرة.. فهناك أربع
فتيات في عمر الزهور قد وجدت الإعاقة طريقها إلى أرجلهن الغضة
وأنا ملهن الرقيقة... وقفت الأم تدعو الله أن يعينها على ما هي فيه... فهي

لا مساعد لها غيره سبحانه وتعالى، وبينما هي تهم بإعداد الطعام لتلك الأفواه... إذا بالباب يُطرق بشدة..!

- من؟! قالتها مرتابة!!

- أنا «نمشة» افتحي يا أمي، بسرعة !!

فتحت عائشة وهي لا تصدق عينيها.. فهذه بكرها الحبيبة، ولكن!..

ماهي الحكاية؟ فالشحوب يُخيم على وجهها المشرق، ويطمس معالم العافية في كل قسماته، والهزال يحتل جسدها الذي بات متهاكاً ونظراتها التائهة لا تستطيع أن توضح لوالدها شيئاً!!.

ضمّتها إلى صدرها، وهي ترحب بها وتتساءل عن زوجها.

قالت: إنه أنزلها ورجع إلى قريته، فهو لا يستطيع البقاء وترك شؤونه لأحد!

عادت عائشة لإعداد الطعام، ولكن... ماهي إلا برهة، وقد تناهى إلى أسماعها صوت ارتطام على الأرض!.

لقد كانت «نمشة» سقطت مصابة لتدخل بحور الغيبوبة!

صرخت والدتها، وهي تحاول إسنادها إليها وطلب يد المساعدة من والدتها العجوز ذات السبعين عاماً لتفعل شيئاً.

تحاملت والدة عائشة على نفسها، محاولة النهوض وطلب النجدة من الجيران.

حملوا «نمشة» إلى أقرب مستوصف، فتم تحويلها بسرعة إلى مستشفى بيشة العام حيث تسكن، وشخصت الحالة: «أورام سرطانية نشطة»!.

بكت عائشة وحاولت الصمود حين أخبرها الطبيب المشرف على الحالة بضرورة نقلها في أسرع وقت ممكن إلى مدينة الرياض وإدخالها المستشفى لخطورة الحالة!

أطرقت وصممت الذهاب إلى زوج ابنتها؛ لتعلمه بالأمر... ولكنه صمت حين ذهبت إليه على وعد منه بالتصرف غداً!!

«وما أطول غدٍ» قالتها عائشة بزفرة حارة خُتمت بأنهار من الدموع، حين أتى ذلك الغد الجاحد تفاجأت بذلك الزوج يرسل ورقة طلاق ابنتها؛ خلاصاً منها ومن مرضها!.

«لا حول ولا قوة إلا بالله» تمتمت بها، وهي تتوسم الأمل الأخير بعد الله بأخيها «أحمد» ولكن!

ما أقسى الجروح حين تهاجمنا من كل جانب فتمثل لنا حلقة دائرية من الأشواك والأوجاع.

وقتها بات كل شيء بلا قيمة ولا معنى!

لقد صدمت به أيضاً، وهو يقول لها: «ليس عندي أي استعداد لعمل شيء لها احملها بسرعة حتى لا نصاب بمرضها»!!

وكردة فعل غاضبة عارمة اجتاحت أعماقتها.. جمعت كل ما لديها في المنزل من متاع وعرضته للبيع وحملت أطفالها بشرود نظراتهم وشحوبها وضمت ابنتها على صدرها واستقلت مركبة إلى الرياض، مودعةً بها (بيسَّة) ومن فيها، وما عليها..

تضرب بخطواتها الأرض برفقة والدّة طاعنة في السن ومستقبل مجهول يحقّه الغموض والحيرة!.

وضعت أقدامها، وهي تدفع ابنتها بالعربة على أرض المستشفى، فارتاح خاطرهما، وهي تودعها للبحث عن مسكن لأخواتها!!!

كانت تحلم بشفاء «نمشة» وضمها إلى إخوتها والبحث عن عمل لتربية أطفالها، ولكنها لم تكن تعلم بأن «نمشة» ذات العشرين ربيعاً قد ماتت في أعماقها الرغبة في الحياة... قد نظرت إلى من حولها، وكأنهم سحاب صيفٍ عابر يتحركون فيصمتون وتسكن حركتهم في لحظةٍ ما...!

فهنالك في قلبها ورقة تحترق... تتعض أضحت تنظر إلى البشر على أنهم تماثيل فارغة تعكس ما يجول في كيانها من أوجاع ومرارة، تخرج من حلقها المختق بالعبرات أوجاع ومرارة تخترق حلقها المختق بالعبرات!!! لم يستمر نبضها كثيراً، إذ فصلت إحدى رجليها، وصارت تتلقى الطعام من خلال أنيوب عبر فتحة أنفها...

نظرت إلى من حولها من ممرضات... إلى من حولها من مرضى... إلى غروب الشمس بأشعتها الصفراء عبر نافذتها... وتوقف نبضها ورحلت بصمت!.

تلقت والدتها الخبر الذي نزل على روحها كالصاعقة في ليلةٍ حالكة السواد تشوبها الرياح الماطرة فشلت حركة يدها المرتعشة، ولم تقوَ على رفعها لصد هجوم تلك الدموع ومنعها من الخروج إلى العالم وصارت نظراتها تائهة ضائعة لا ترمي إلى هدف...

حتى زوايا وأركان منزلها صارت تمثل لها أحزاناً قابعة تتوشح منديلاً
مغموساً بالأكدار يُرثى لحاله، فغابت معظم الكلمات من لسانها وتلعثمت!.

دخلت عليها جارتها الجديدة التي سبق أن زارتها أمس وسلمت عليها
وسألتها عن حالها الآن...

رفعت نظرها صوب لا شيء، وقالت: ... عايشة!!.

obeikandi.com

جواز سفر!

شق النور عباب السماء متسللاً إلى بهو ذلك المنزل... واستيقظ الجميع... وكعادة «نوف» نهضت؛ لتعدّ الطعام، وتعتني بأمور منزلها!!
وتجري الأيام في حياتها كأنها قطرات مطر منهمر تستقبلها الأرض العطشى فتضمها بحنان وشغف، ولكن... لا تلبث أن يتلاشى هذا الحنين لتطلب المزيد!!

أما الوفاء بالعهد ذلك الشيء المتأصل في عروق الأوفياء.. فلا يشعر به غيرهم.. تجده زيفاً اتُخذ ستاراً لأخطاء الخائنين وهفواتهم.
وهاهي نوف تستعيد أيام زواجها الأولى وتستعذب حلاوتها؛ لتنسى مرارة ما تعيشه من واقع!

ترأت لها صورة ذلك الزوج الحنون الودود الذي يسعى جاهداً؛ ليرسم البسمة فوق شفاه أسرته الصغيرة التي يبارك زيادتها وكبرها، تجده الآن لا يقبل منها ما يعكّر مزاجه المتقلّب وصار قضاء حاجاتهم نوعاً من العبء يفعله بأسرع ما يمكن؛ ليتفرغ لنفسه ومتعته تلك التي يظن أنها متعة!!!

«ما أحقر الحياة بهذا المنطق»!

قالتها نوف بزفرة عميقة تجترُّ وراءها كثيراً من الآهات...؟

ذات يوم بينما هي مبحرة عبر شطآن الوحدة والأحزان إذا به يدخل المنزل مرهقاً كعادته، والساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل لتستقبله متعطراً وهي تكظم حسراتها وآلامها... ولكن لم تجده... نعم لم تجده بل وجدت إنسانا مرهقا يبحث عن فراشه فقط؛ لينام!

التفت إليها ليخبرها بأنه ليس بحاجة إلى أي شيء فقد تناول العشاء مع الرفاق، أحست نوب بأنه يشعر بالاكْتفاء التام ربما حتى من وجودها بجانبه وغط في نوم عميق يرافقه شخير عالٍ...

التجأت إلى الله بكل أعضاء جسدها المنتفض ترجوله الهداية وتدعو له بكت وبكت حتى شعرت وكأن الضباب قد غطى عينيها لكثرة الدموع، فلم تعد ترى شيئاً..

حل الصيفُ والتقى كعادته برفاقه، يتشاورون إلى أي دولة ستيوجهون، حتى استقر رأيهم على واحدة، وبسرعة أحضرت جوازات السفر وقُدمت وخُتمت وقُطعت التذاكر... وبينما هم في الطريق باتجاه أحد المطاعم عرضوا عليه فكرة أن يكون العشاء عنده الليلة.

وَأفق دون تردد !!

حل المساء واجتمعوا للعشاء..

غمز أحدهم رفيقه، وهو يشير إلى ما علا منضدة التلفاز..

إنه جواز سفر!.

عند خروجه لإحضار بقية أطباق الطعام اختطفه أحدهم وأخفاه وأخذوا يتضحكون ويتضحكون.

لا يعلمون أنهم بفعلتهم هذه سيحطمون أسرة كاملة تسعى ربّتها أن تتقدّمها وتتقدّم زوجها وتدعو الله راجيةً أن يهديه ويصلحه...

تناولوا العشاء وغادروا، وكانت الرحلة في الخامسة عصراً من اليوم الآتي ونوف تداري أوجاعها عن صغارها وتختلق الأعداء لتصرفات والدهم وأسفاره الكثيرة التي بلا هدف؛ حتى لا تنهار صورته الشامخة في ذاكرتهم الغضة!!

يحين موعد السفر، فتشعر بأن روحها تكاد تسافر إلى البعيد المجهول في هذه الدنيا العجيبة!!

يدخل عليها، وهي تحاول مسح الدموع التي استطاعت الخروج رغماً عنها إلى عالم الوجود الميت!!

سألها بعجلة قاسية: أين جواز سفري؟

ردت عليه بشيء من الدهول: بأنها لم تره مطلقاً!

جن جنونه وقلب المنزل رأساً على عقب ولم يجد له أثراً فزار بوجهها وبوجه أطفاله الصغار، حتى ارتعدوا وبكوا.

صار كالذي يتخبطه الشيطان من المس لا يعلم ماذا يفعل؟ أين يبحث؟ إلى أن وصلها منه لطمّة قوية أسقطتها أرضاً، نهضت مسرعة؛ لتقاوم تلك الصفعات بيدها... واشتعل المنزل صراخاً ممزوجاً بمرارة قاسية ترسم صورة للأسى في تلك الأنف المخطمة!

خرج كالمجنون هائماً على وجهه لا يلوي على شيء، وحاول الاتصال بزملاء الرحلة فلم يوفق!

انتصبت وتماسكت بما بقي فيها من قوة وبعجلة جمعت ملابس أطفالها وبعضاً من ملابسها وخرجت راحلة... هاربة إلى منزل عائلتها المكونة من والد كبير السن وشقيق وحيد متزوج، وله أطفال.

بعد عدة أشهر علم ذلك الزوج التائه أن زوجته في إحدى المصحات النفسية وأن أطفاله في حالة يرثى لها من الكآبة والحزن إلى جانب العراك المستمر مع أبناء خالهم، ورغم ذلك كله لم يعرهم اهتماماً!!

وفي يوم... رن جرس الهاتف كان المتكلم أحد خاصة رفاقه المستهترين أخبره، وهو يضحك أن جواز السفر بجوزتهم، وأخذ يتأسف لتلك المزحة الثقيلة.

صرخ بسماعة الهاتف، وهو يتخبط ويتوعد ويحلف بأغلظ الأيمان بأنه سينتقم.

في هذه الأثناء تذكر أسرته، زوجته وأطفاله وكأنه استفاق من حالة إغماء جعلته غير مدرك لما يحدث حوله.

هرع إلى أطفاله، محملاً بالهدايا والأغراض، محاولاً تصحيح بعض أخطائه وتهديئة الوضع، ولكن فات الأوان..

لأن زوجته الحنون لم تعد هي.. لقد انسلخت من عالمها وأصبحت تعيش عالماً آخر من الشتات وأبحرت بعيداً عنه..

لم يدر أن قدرتها على تحمّل الجراح محدودة.. إلى أن رآها تمرّ بحالة من الهياج والاضطراب لمجرد وجوده في منزل أخيها فهي لم تعد تطيقه، حتى رائحة عطره باتت تجدها ننتة مقززة، فقفل راجعاً وهو يتحسر على تلك الأيام..

وأقسم بأغلظ الأيمان أن ينتقم ممن حطموا أركان منزله!!

بقايا الأمس

أقبل الليل بنسماته الحاملة... بهدوئه المعهود، فعبّر ماراً بطرقات المدينة الصغيرة. كانت البيوتات متقاربة... مترابطة وكأنها أخوة قد أخذت العهد على نفسها بالأتفترق!.

في كل بيت تسكن أجساد... وأسرار... وآلام.

في تلك اللحظات كان يهم بالدخول إلى منزله وفي قرارة نفسه خوف وتوجس مما سيسمعه منها بعد قليل... الأمل... أصل الحكاية التي لم تبدأ لتنتهي... هو ذلك المرام الذي طالما داعب مشاعرهما معاً.

دلف من باب الدار... فاستقبلته بمحياتها المشرق ورائحة بخورها الفواح... ونسمات تسللت إلى أنفه مفعمة بعبير الهيل الممزوج بالزعفران.

كل ذلك كان كفيلاً بأن يلغي مشاعر فياضة بالحنين... الحنين إلى مناغاة طفلٍ يحبو.

سدّ أذنيه عن صدّى لم يكن غير صوت والده العجوز، وهو يلح عليه بذلك ويدعوله بالذرية الصالحة!!

جلست... وجلس بالمقابل... يتلفت محاولاً إشغال نفسه بأي شيء؛ حتى لا تصطدم نظراته بنظراتها، فيقرأ كل كلمة تحاول التعبير عما يكفه جوفها من أمنيات...

ولكن لا مناص، فقد بدأت بالكلام الذي سبقه قطرات من الدموع
تسربت رغماً عنها !!.

لقد طرحت عليه فكرة الزواج بأخرى، وأنها التي ستخطب له ولن
تغضب و... ..

كانت هناك عبرات تتقطع بحلقها، وكأنها كومة من الأحجار الصلبة.
حيرة... ألم ... إحساس بالإحباط والعجز عن عمل أي شيء يربطنا
بسلم الوصول إلى الهدف ... وقلب ... قلبٌ يرفض المكتوب ويرفض البعد
عمن التصقت أرواحنا بهم، فيستحيل الانفصال!!.

لقد هاله منظر عينيها، وقد تحولت إلى شاطئ يسكنه الصمت فيثور
فجأة؛ ليروي الأرض بمائه رغم ملوحتها وكثرة ما تحمله من الأسرار...
والشوائب.

قالت له: أريد البسمة على وجهك وأنت تمسك بيده وتذهبان إلى
المسجد... إلى المتجر... إلى أي مكان تشعر بالفخر به، وهو بجانبك.

إحساس مشبع بالخوف والندم... وأشياء أخرى... تعبت بكيانه وصوت
يصرخ به: ألا تفعل ... ألا تفعل!.

تماسك وقال بكل ما استطاع أن يعبر به: لن أتزوج وسوف أرضى بما
قدره الله لنا أفهمت!؟.

نهض مسرعاً إلى الخارج وهو يصارع أفكاراً شرسة تهجم على جوارحه
وأعماقه كما يهجم المرض على الأجساد، فيبليها أمأً.

توالت الأيام ومضت سنوات وكثر همس الناس حوله ... وأتى من يقنعه بأن يجرب مرة أخرى ...

فقال لها: قيل لي: إن في أطراف المدينة منزلاً طينياً تسكنه عائلة فقيرة مكونة من أب وابنته المطلقة وجدتها العجوز، وقد اقترح علي أحدهم أن... أتقدم إلى هذه البنت، وأتزوجها لعل الله يحقق الأمل، وثقي بأنها بالنسبة لي أم ولدي فقط!!!.

نهضت وأشاحت بوجهها عنه، وكأن كأساً من زجاج مملوء بماء حار صب على رأسها ونزل إلى كبدها، لكنها استسلمت ولم تتفوه بكلمة، بل اكتفت بإلقاء النظرة الأخيرة عبر ما صال وجال في أعماقها!!!.

وفعلًا.. تم كل شيء بسرعة وتزوج من تلك الفتاة ووجد ما كان يطمناه فحملت وأنجبت... وصار له أطفال وشيئاً فشيئاً بدأ يتسرب اليأس إلى قلبها الحزين... الإحساس بأنها «حرف» زائد من بين أحرف الحياة، فلم تستطيع التحمل وطلبت الانفصال، عندما شعرت بأن أطفاله قد أخذوا منه كل اهتمامه!.

دارت في نفسه عدة تساؤلات كان أبرزها العشرة... الحب... الحب الذي لا يمكن أن يتكرر أو ينتهي..

ولكن... تذكر أنه عاهدها منذ بداية لقائهما بالألأ يضغط على أعماقها، فيرفض لها طلباً أو رغبةً وإن كانت بالنسبة له الغرق... الألم... حتى الانصهار.

وافق على مضض، وهو يتأمل تقاطيع وجهها الحائرة ورفيف رموشها الغاضبة، وهي تحاول طرد القطرات الحارقة من الماء عن غابة عينيها التائهتين.

أمسك بيدها الباردة، وهويبيكي ويتمنى أن تتراجع عن قرار خطير
كهذا... ولكن ...

قد نتحمّل جروحنا ونعيش وَخَزَاتِهَا وقد نضع أناملنا على منابتها
محاولين رتقها حتى لا تتسع؛ لكي نجاري الحياة ونحاول التأقلم مع ما
تبقى لنا منها بصمت.

مرت أيامٌ وسنون وما زال يلوح له ظلها وهي تجرّ آلامها ممسكة
بحقيبة ملابسها تخطو آخر الخطوات في منزله وبين ناظره بتصميم
وعزيمة.

تلونت الليالي في مخيلته وأيامه وهو ما زال يتنفس عبق عطرها الأصيل
وطلتها البهية، محاولاً مقارنتها بأطفاله، ولكن...

لا يمكن... لم يشعر يوماً من الأيام، ولو بتشابه بسيط بينهما... فقد
كل رومانسية كان يعيشها ويتمتع بأيامها !!.

كان له خمسة أطفال أكبرهم يبلغ من العمر عشرة أعوام وأصغرهم
ما زال وليداً عندما تخلّت عنه والدته بالرحيل بعد صراعٍ مرير مع المرض
لم يمهلهما أن تراه أو تبارك اسمه.

وكان الأقدار بأمر مديرها قد وضعت للحياة رسماً تفصيلياً !!.

بقي وحيداً يصارع الأوجاع في كل لحظة فيداهمه الخوف وما يكاد
يصرخ حتى يسمع أنين طفله الرضيع، وكأنه علم يقيناً بأنه في العراء،
بعيداً عن حضن دافئ يشعره بالأمان ويشبعه رائحة الحنان، فينام قريـر
العين.

يحمل طفله وفي صدره حشرجة ثقيلة وطرق باباً من الخشب عن يمينه
ويساره حوضان من أحواض الريحان الذي كثيراً ما كانت تهتم بزراعته
ونشره في زوايا البهو...

ولكن ... غزا قلبه رجفة فنشف حلقه ابتلع ريقه بصعوبة بالغة... ليس
هناك بوادر للحياة، فالأغصان يابسة والأوراق صفراء، إنه نذير شؤم!!
أطرق بشدة فسمع صوت هزيل بالداخل ما لبث أن اقترب وفتح ليفاجئه
ظل شبح لزوجته... التي شهقت ثم سقطت وكأن الله استجاب لها، فقد
كانت السقطة الأخيرة وكان لها أمل وأمنية بأن يكون هو آخر من تراه.

تتابعت أسئلة كثيرة عبر خطوط وجهه الأسمر، ولكن لم يجد لها
جواباً، بلع الألم وعاد إلى منزله يجر الخُطى بروح هاوية وأنفاس متقطعة
يحمل مسؤولية خمسة أرواح بريئة ترقبه بصمت... وانكسار وكأنها تقرأ
ما يدور في مخيلته من خلال حركاته اللاشعورية وتعبيراته الانفعالية بين
الحين والآخر.

حملهم مع همومه، وانزوى بأحد أركان منزله القديم، وهو يعيش ما
تبقى له من خلال أحلام اليقظة، فيكلمها ويدنو من أماكن جلوسها
ويحتسي القهوة ويتسامر ويحلم.

ولكن ... مع خيالها.

obeikandi.com

شواطئ من الدموع

وقفت، وهي تداري دموعاً مندفعة، حاولت الخروج إلى أرض الواقع؛ لتعلن للملأ حالات الظلم والاستبداد التي كانت تتعرض لها كل يوم! كانت حياتها أشبه بالحلم... رفاهية... حنان... دفء يشع في أركان المنزل الكبير!!

... فاطمة هي آخر القطاف الذي أثمر بعد لقاء اثنتين تعاهدا على الإخلاص والحب وبذلا الكثير لحياة طيبة مطمئنة تحمي مراحل عديدة ابتداء من الطفولة إلى الصبا إلى مرحلة هي من أصعب المراحل التي يمر بها الأبناء... مرحلة المراهقة...!

ولكن.. لم تمهلها الأيام لتتذوق حلاوتها بجانبها، فقد حلّ قضاء الله وانتقل والدها ووالدتها إلى دار الخلود مُعلنين بذلك أروع صور الوفاء بالعهد والإصرار على الرفقة دون افتراق...

فقد رحلا في حادث مروري مفاجئ!

وهذه الحياة نسير فيها لاهثين... باحثين عن بصيص لأمل...

عن واقع لحلم جميل نحاول تحقيقه، ولا نعرف هل سنصل يوماً إليه أم سيتوقف في محطة من محطات العمر بتوقف نبضات قلوبنا المتعبة!!

حاولت مجاراة الأمور والسير في طرقاتها المتعرجة...

ولكن لم تدعها ألوان الشقاء بل لازمتها كظلمها.

فقد استقر بها المقام عند أخيها الأكبر وزوجته...!!!

إلا أن الأخيرة لم يرق لها ذلك فحاولت التفتيش عليها قدر المستطاع؛

لأنها أحست بأن هناك من سرق منها اهتمام زوجها بها...

أما أولادها فصاروا كالملائكة بعد أن كانت تشتكي من ضجيجهم ومشاكساتهم وكأن مجيئها فرحة كبرى... عيد أشرقت شمسها واغتبط

الصغار بقدمه!!! كانت لا تنام حتى تنهي جميع شؤون المنزل...

فزوجة أخيها اختلقت مشكلة مع الخادمة وأصرت على ترحيلها. ومع

ذلك لا يعجبها لها أي عمل تقوم به «فاطمة!». حتى أتى يوم وأصدرت قراراً

بعدم إتمام تعليمها! رغم أنها طالبة جامعية مهذبة هادئة خلوقة ودائماً

ما كانت تترقق في عينيها دموع... في كل سكنة من سكنات روحها... في

كل مرة تبصر بها إلى البعيد القريب من أحداث حياتها!.

بكت... أروت وسائدها دموعاً غزيرة...

حتى أستاذة المادة عنفتها عند حصولها على درجة ضئيلة... لم تمهلها...

لم تبصر عبر شواطئ عينيها الحوراوين فتصطاد منها ما يؤرقها... لم

تسأل مجدافيتها عما كان يربض عليهما فيعيق تحرك المركب...

بل اكتفت بالتأنيب ولفت نظرها «بإنداز» وصممت وكأنها بذلك أتمت

واجبها ولم تعلم أنها عملت على إسقاط أروع الأحاسيس في أعماقها...

لم تعلم أنها كانت معول هدم لكل بقايا أمل لنجاح أمانيتها!!.

أسبوعٌ كامل... لم تدعها زوجة أخيها تذهبُ إلى ذلك المتنفس الوحيد لأوجاعها وضم ما تلاقيه في معترك ساحته إلى تهيميشها في المنزل... حتى أضربت عن الطعام وهزلت!

كان مجيء خالها «عبد العزيز» منقذاً لها، وكأنه أحس بشيءٍ يختلج كيانها... لقد لاحظت ذهولها وهي تصب القهوة في الفجان حتى فاض وتناثرت قطراتها حول أناملها.

لقد سمع صوت أنين مكتوم بالكاد يتسرب إلى مسامعه ولكنه أنين مذبوح! استفسر عن عدم ذهابها للجامعة (وعرف السبب)!!

حاول إقناع أخيها بضمها إلى بناته فرفض، فتوصل خالها إلى حل آخر ينتشلها من براثن الأحزان، وهو «السكن الجامعي» فوافق أخوها بعد تردد.

كان ذلك القرار بالنسبة لها بوابة الفرج من تلك القيود.

تقاسمت وصديقة لها إحدى غرف السكن وراحت تبهر عبر أمواج عينها فيروعها ذلك الموج الهائج الذي فاض حتى تعدى جزيرة أهدابها الكثيفة... اقتربت منها... تلمست أوجاعها فكانت نفسها المذبوحة تن بصمت... تثور بأوجاع داخلية لا يشعر بها من حولها.

فقط هي من تعاني الألام بذهول.

تحدثت فاطمة إلى صديقتها تلك، وكأنها داست جراحاتٍ عميقة، ففجرت أوراماً من الكدر وبدأت تنزف.

صار عند فاطمة فتاعات كثيرة بأن خلف الأسوار كرامات مذبوحة!.

انطلقت نظراتها صوب الأفق...

صوب لاشيء، وراحت تسبح بملكوت آلامها.

obeyikanda.com

المقص الأسود

كان متعجرفاً... كل ما يهيمه ذاته... وذاته فقط !!

كان منزله أقرب إلى معتقل وحشي يُمارس فيه جميع أنواع التعذيب من جرحٍ لمشاعر... وإسقاط لكرامات... واستحقار فظيع يسوط به إحساسها المرهف الصابر لأجل حبات القلب!

كانت تعد دخوله المنزل نوعاً من العاصفة الرملية الساخنة المحملة بأثقالٍ من الغبار!

فتمتاسك إلى أن ينام أو يخرج من المنزل لوجهةٍ لا تعلمها.

حتى أتى ذلك اليوم الذي تحللت فيه من قيوده برغبته هو.

ولكن لا يزال في عنقها قيدان جميلان قد غرسا في قلبها المسكين...

إنهما ابنها وابنتها اللذان لا يعلمان ما تعانیه لأجلهما... ورحلت!

تركتها وحدها على أعتاب المراهقة... جميلة... شامخة... تمتلك شعراً غزيراً جذاباً فاحم السواد.

وما هي إلا عدة أسابيع... إلا وزوجته الجديدة من تلك البلاد قد

احتلت غرفة والدتها المسكينة !!

كانت تلك الزوجة المشدوهة... المنبهرة بجمال هذه الصبية

يراودها خاطر!!

فما كان منها أن أمسكت «المقص» وقصت لها شعرها المسترسل بحجة الموضة! بكت حتى روت وسائدها دموعاً من القهر...

لقد سلبت منها ما يخصها وحدها هي فقط!

لاحت لها صورة والدتها الحبيبة ذات (الملاح) الهادئة... والبشرة الصافية دون اصطناع والتي تعكس حقيقة قلبها الناصع، وهي تعتني بشعرها الجميل.

تذكرت حين كانت تمسك به تسرحه وتضع عليه «الحناء» وتغسله!!.

كل ذلك ذهب سدى... كل ذلك تبخر... تعب الأيام والسنين القصيرة في عمرها الغض تلاشى منذ أن لامس المقص خصلات شعرها بيد زوجة أبيها «إلهام».

كل تلك الأحداث كانت ترسم على صفحات محياها خريطة كبيرة من الهموم عبثت بنظراتها المنطلقة صوب لا شيء في هذه الدنيا الصغيرة!! لاحظت المشرفة الاجتماعية ذلك التبدل الذي طرأ على تصرفاتها... استدعتها...

سألتها بطريقة أخرى لم تعهدها من قبل... أحست أنها حصلت على جميع المعلومات منها دون شعورها!!

بكت ورجتها بالألا تتدخل... أقسمت لها بأن والدها سيحرمها من الحضور، سيبعدها عن العالم الذي أحبته وكان الملاذ الوحيد لها بعد الله لهمومها... لأوجاعها...

أقسمت لها بأنها لن تراها إن هي اتصلت وحاولت محادثته في كل تلك الأشكال!.

لم تصدقها وظنت أنها قارب النجاة وهي لا تعلم أنها تغرقها... تلغي وجودها بين زميلاتها...

صار مكانها خاوياً... لم تجرؤ إحداهن على احتلاله... تقديراً لها... تعاطفاً معها!!!

وذات يوم دخلت المشرفة تسأل عنها... قالوا لها غائبة! فانتظرت لغد... وأتاها الرد نفسه!!

توالت الأيام وقارب العام الدراسي على الانتهاء وأحست بفداحة الخطأ الذي ارتكبه... تذكرت عينيها الطفوليتين وهي تفيض بالدموع وعبارات الرجاء بالألا تتصرف تتردد بأسماعها... علمت أن مهنتها يجب أن تكون أوسع إدراكاً من ذلك وأن لكل تصرف حساباً... أحست بأن «نوف» شيء آخر... معنى عميق مازال طيلة تلك السنوات يعبث... يلهو كطفل يتيم خائف.. جائع في أعماقها، يؤنبها في كل دقيقة حتى في أحلامها مما جعلها تعيش مكتئبة حزينة، كل الأيام في حياتها مزيج من الندم.. والهم.. والرغبة في البكاء... البكاء بصوت عالٍ!

obeikandi.com

البكاء بصمت ...!

كانت الحياة تسيير بذلك الزورق وسط بحر هادئ وأمواج زرقاء صافية
تهفولها النفس المطمئنة...

ولكن... فجأة ومن غير ميعاد تلاطمت تلك الأمواج معلنة الحرب على
ذلك الزورق!!

ومع غضب البحر الهادر! انقلب وقذف بحمولته في قاع البحار وصار
عصفاً مأكولاً!

نجا من نجا وتحطم من تحطم.. ومن حاول النجاة شق طريقه عبر
الأمواج حتى وصل البر... وسار حتى استقر..!

مرت الشهور بعد هذه الحادثة، وكأن بعضاً من الأمان بدأ يتسرب إلى
جزء من النفوس المحطمة!!

لم تكن أكبر الحصاد، ولكنها حملته... كانت قد استحوذت على قلب
والديها وبعض أسرتها.

لم تكره أحداً في يوم من الأيام.. كانت تفيض بالأحاسيس المرهفة..

فتعمل بوجودها ما لم تعمله جميع الأساليب للجروح!

وفي مدرستها كانت أشبه ما تكون بكومة من المشاعر قد تجمعت؛ لتنتشر

الود والوفاء بين القلوب...

وللأسف لقد صدمتها عدة مواقف لم تكن تتوقعها أبدا...

حاولت تحليلها... تبريرها... والاقتراب من أصحابها... جاهدت
بالتعبير عما يكنه قلبها ورفض هذا الأسلوب دون جروح...

ولكن قوبلت بزمجرة غليظة تفضح ما عملت بعض الأنفس في أعماق
تلك الصحبة...

وذات يوم انفرجت أسارير الشمس؛ لتخبرها عن حدثٍ جديد يقترب
من حياتها... شابٌ حكيم ذو أخلاق عالية وقلبٍ رقيق.

رحلت معه يشق طريقه بجانبها عبر ملامح متفائلة بحياةٍ سعيدة
ومستقبلٍ محفوظ بالإيمان...

مرت الأيام.. أنجبت.. بكت.. تلفتت.. لم تتقدها تلك التساؤلات
التي لاحت من خلال نظراتها بكى طفلها.. ضمته بخوف.. هناك آلام لم
تعهدها... مشارط الأطباء قد عملت على رسم خريطة كبيرة على جدار
بطنها... تلك هي ضريبة الأمومة!!

تبسمت و أحست بحجم المسؤولية من خلال هذا الجسم الضئيل الذي
ينبض.. شعرت أنه بيضة يجب الحرص عليها؛ كي لا تتخدش، تذكرت
المرضة عندما سألتها قبل الولادة بلحظات وقد أرعبتها تلك الحركة
المضطربة في الغرفة، فهناك وضع غير طبيعي...

عملية؟!.. حاولت طرد الخوف الذي بدأ يتسرب إلى أعماقها، فسألت
متى أرى الطفل؟!... قالت لها: أنت طفل...

حاولت من خلال هذه المدة العصبية الصبر وتحمل المسؤولية الكبيرة وحدها، وشعرت أنها يتيمة وهما على قيد الحياة، وتذكرت أن هناك عوائق استولت على خطواتهما إليها... عزت نفسها بذلك واستسلمت...

الجرح يؤلمها.. والطفل يبكي، وهناك مسؤوليات جسيمة تبثق بأعماقها!.

كم تمنيت أن يكون وضعها كباقي البنات.. ذهبت لزيارة منزلهم! قلبت تلك الخطوط التي ارتسمت على الوجوه.. تحاول فك طلاسمها لم تستطع !!

كان والدها ذا ملامح إيمانية شديدة تكسو محياها تلك الشعيرات البيضاء وقد تحول في نظرها قمراً يشع رحمة ونوراً... أما والدتها فقد كانت تجاهد لحظات الفزع التي تتملك كيائها بالانفجار بوجهها كلما رأتها... لم تكن قاسية بل على العكس من ذلك... لها مكانة في قلوب الجميع طيبة، ولكن!..

هناك قوة قهرية قد هبطت بروحها فتملكتها وقد ألغت ألوان الفرح والطمأنينة في فؤادها وأمام ناظرها إلى رعود مزمجرة ترسل شغفات الخوف لقلبها... حتى ارتعدت... وابتعدت...

توالت الأعوام وكبرت المسؤوليات... واتخذت لها طريقاً على الرغم من مرارته حاولت أن تتقبله وتقتنع به..

حاولت الاتصال.. فصدمت.. صارت كمن أفاق فجأة من حلم مزعج أو غيبوبة ونهض مسرعاً، يتخبط لا يعرف إلى أين سيمضي؟

كبرت الجفوة.. ورحلت الجدة التي طالما عذبتها أحاسيس الابتعاد..
 فقد كانت تقاسمها الغرفة قبل رحيلها إلى منزلها، وحتى العبادات
 كانت تشعل فتيل الحماس بوجودها للتسابق على أداء النوافل.
 غزا قلبها نوع من الشجن العميق وبكت... بكت ولم تتوقع أن دموعها
 ستجف يوماً، وكأنها قد عرفت ما اعتمل بكيان جدتها الحنون من مشاعر
 الرفض لهذا الوضع الأليم..

فهربت أولاً بذاكرتها، حيث أذهلت كل ما حولها ثم اختتمت ذلك
 بالرحيل! وفي ذلك اليوم الذي كان يجلس فيه والدها على حافة القبر
 لم يكن يدور في خلدته، وهو ينظر إلى جسدها الضئيل وهم يوارونه الثرى
 وعيناه تنزفان لما فيه من لوعة وحسرة أنه لم يبقَ من عمره سوى واحد
 وعشرين يوماً فقط ويلحق بها، حيث أفاق صباح يوم الجمعة ولبس ثوبه
 الأبيض وغترته البيضاء وتوكأ على عصاه القديمة الصلبة، ذاهباً إلى
 المسجد...

كان الإمام يمشي وراءه، وهو يتعجب لهذا الشيخ من مسابقتها له
 للمسجد... لم يمنعه ضعفه من هذه المسابقة الجليلة...
 وفي خضم هذه الأفكار التي راودت الإمام إذا بالشيخ يهوي على عتبة
 المسجد... فسارع لنجدته وحمله وأراد إيصاله إلى منزله، فما كان منه إلا
 أن أشار بيده صوب المنبر وهمس: إلى هناك!!

استند على أحد الأعمدة الموجودة هناك وأخذ يؤذّن بكل ما بقي فيه من
 قوة ونفسٍ متقطع، وما إن انتهى حتى تشهد وكبر ولفظ أنفاسه الطاهرة

ففاضت روحه وكأنه طائر أبيض يحوم حول المئذنة عندما صدح صوت المؤذن بالأذان وروحه تسابق العبارات العظيمة إلى السماء..

جلست القرفصاء في ترقب وفزع.. ولآخر مرة ضغطت على بقايا الكرامة في كيانها.. تنازلت وأسرعت الخطى نحو ما تبقى لها من فرع.. حاولت احتضانها.. ولكنها استقبلتها بعتب واستنفار ونزلت عليها تلك الكلمات كالبحر المسموم... تحملت ومازال الطريق إلى قلب والدتها صعباً تحفه المهالك والمتاهات !!

بقي شيء واحد كان لها بمنزلة الشمعة المضيئة وسط ليل دامس هي تلك الزهرة المرحة والديمة الحائرة في خضم الأحداث.. «هي شقيقتها الصغرى» فهي بمنزلة نسمة عذبة ترمم الآهات الحائرة لأنفاسها المتعبة فتكون بلسماً للجروح ومتنفساً للكدر في حياتها... بل ومعنى لبقايا الانتماء في عالمها المتضارب !!

وتدور الأيام، وهي على أمل بلقاء تلك الشقيقة الطيبة... إذ هي كالأرض العطشى لرشقات مطر تترقب اللقاء... إلى أن تنهى إلى مسامعها أغلى خبر ظنت أنه نهاية المطاف مع عذاب حرمان رؤيتها، فلقد علمت بقرب زفافها وفرحت ورأت الدنيا أمام ناظرها ملونة بألوان جميلة تبعث في أوصالها نعمة الإحساس بالفرح... ولكن!

في لحظات، وعندما نصطدم بأحداث مؤلمة تكاد تنتزع ما بقي من أوتار قلوبنا، فإن كل شيء بات لا قيمة له..

فقد أحست بأن حضورها لحفل الزفاف سيكون على حساب أنفاس أخرى لا ترغب ذلك، وربما ينتهي كل شيء.. كل شيء بالنسبة لعالم شقيقتها السعيد.

صمتت متخذة لنفسها سياجاً منيعاً من جميع مَنْ حولها من أشخاص واكتفت بباقة جميلة ملونة غلب على ألوانها اللون الأحمر؛ ليعبر عما يعتمل في قلبها لها من آمنيات بالتوفيق، وكتبت لها إهداءً، وبعثت بها إلى الفندق في تلك الليلة...

صار لروحها سكنات تحب أن تبجر من خلالها؛ لتلمس وجودها عبر اتجاهات الرياح... مرت أمام مخيلتها صور كثيرة فرأت جدتها وسمعت همسها بتسييحاح السحر عند التهجد... تراءت لها صورة والدها بخطواته الثقيلة إلى المسجد وتسرب إلى مسامعها بسملة الحانية...

قابلت جميع البشر وتأملت الشجر، وحتى حبات المطر، واستنشقت رائحة نداها مبتسمة، ولكن في داخل أعماقها شيء يحترق وقلب تقطعت نياطه ودموع... وبكاء... لكن بصمت!!.

صرخة ألم!!

اصطنعت النعاس، تثناءت محاولة إقناع نفسها بأنها ترغب في النوم...

الهروب من الواقع المرير لحياتها التعيسة!!..

فهاهي الساعة الثالثة فجراً، وقد اختتمت سهرتها مع الورق وزوايا الأركان، واسترجعت الماضي... الماضي ربما القريب نوعاً ما من حريتها... من آمالها وأحلامها الوردية التي طالما رسمتها بإتقان لحياتها المستقبلية مع رفيق درب يقاسمها الطريق وما يعترضها من مفاجآت، ولكن...!..

كم نعاني عندما نصطدم بالواقع المعارض لأحلامنا...

كم نعيش لحظات شرود عندما تتكوم أوجاعنا في حلقنا وكأنها أحجار صلبة لا تلين أو تصمت، فهو ذا ما يُسمى خيبة الآمال التي تربعت يوماً ما في مخيلتنا.

قد نتأمل حياتنا وأمانينا في جو من الاستقرار النفسي ومحاولة الفوز بفرض الحياة، فنصطدم بواقع آخر مرير من السلبيات التي تمحو كل ما تخيلناه!..

انتصبت واقفةً، عندما قطع عليها تأملاتها صوت خطوات أدارت بقايا جسدها المتهالك، ليفاجئها ظله وهو في حالة من الإرهاق يتخبط، يبحث...

بالطبع لا يبحث عنها، بل عن باقي الوسائد ليهوي... وكأنه مخلوق
 بشع لم يعرھا اهتماماً! التفت إليها وهو مسبل الأجنان، وقال: لماذا لم
 تنامي هل تعانيين من شيء؟

وقعت هذه الكلمات على مسامعها كأنها صاعقة وخالجها شعور
 بالاستفراغ... والهروب بصرخات متقطعة، وهي لا تحتمل الاستمرار.

تذكرت «منى» صديقتها عندما قالت لها: زففت إليه لم أعط لنفسي
 فرصة للتفكير بأي عوائق واعتبرت بأن الرجل بأخلاقه ورجولته وشهامته،
 فكم من زوجة دفعت بيد زوجها إلى سلم السعادة والنجاح، لكنه شيء آخر
 من الفوضى وعدم المبالاة بأمور مهمة كثيرة برغم أنني رضيت بالحياة
 معه ومع أسرته المتواضعة.

ولكن لو أنني كرهت شخصاً في حياتي يوماً ما لكرهته ثم كرهته؛
 لأنه لا يستحق دمة واحدة من عيني اللتين تابعتيه بحب صادق منذ أول
 يوم لزوجنا التبعس، لقد أخلصت له وتحملتته وتحملت الكثير... الكثير
 من تصرفاته الهوجاء تجاهي، حتى طفلي ذو الأربع سنوات يثور في
 وجهه لأنفه الأسباب، لقد بدا لي مجرد ورقة وليس طفلاً، فهو يرتجف
 عندما يسمع صوته ويحاول الانشغال بأي شيء؛ حتى لا يلاحظه فيصرخ
 في وجهه!

لقد خالجنى شعور محبط بالقهر؛ لأنني سمعت تحذيراته لي بعدم
 الاقتراب منه حين يؤنبه بسبب ودون سبب!

ليتني ضممته إلى صدري ليتني أشبعته رائحة الحنان وغمرته بالأمان.

أي حياة تلك التي نعيشها يا صديقتي... يقولون: إننا متغطرسات عندما نرفض الارتباط بأشخاص نشعر بأننا غير قادرات على التأقلم معهم، وعندما يتم كل شيء ونرضى بقدرنا نجد بعضهم يثور بداخله هذا الهاجس الذي لم نحاول يوماً أن نشعرهم به، ولكنهم يحاولون إهانة أحاسيسنا... وتهميشنا بتصرفات تخلو من الرحمة والتقدير، فنجد أنهم يترجمونها بالتسلط، وكأنهم يحسبون أن ذلك هو القوامه !!

ونحن نمضي في هذا العالم الغريب... نجر آلامنا وأسرارنا بصمت دون أن نجرؤ على التفكير بالتوقف؛ خوفاً من نظرة ذلك المجتمع المحدود الأفق، وخوفاً من أن يشار إلينا على أننا نحن الخاطئات فقط !!

ألا تعلمين يا (أماني) أن منزلنا بالنسبة له كان مجرد فندق يأتي إليه عندما يستنفد جميع طاقاته وأوقات مرحة ومواعيده الخاصة التي لا أعلم عنها شيئاً، ولو حاولت التخاطب معه قلبها إلى حرب ضروس؛ لأنني اقتحمت عليه خصوصيات من الجرم أن أعرفها، أتذكر أمي -رحمها الله- وهي توصيني في ليلة زفافي بالأقل على قلبي أية أسرار عنه فنحن الآن روح واحدة يجب أن يعلم كل منا جميع أحاسيس الآخر.. وتأملاته.. وأمنيته، فقد بني الزواج على المحبة والرحمة اللتين تحدث عنهما القرآن الكريم.

خرجت من الغرفة بعدما بدأ خيال «منى» يتلاشى من أمامها لقد أحست أنها تختنق، وفجأة اصطدمت بقسمات عتيقة، فحاولت فك تلك الخطوط التي ارتسمت عليها، فلم تستطع!

شيء واحد فقط قرأته بوضوح عندما شعرت بأنها السبب في حالة زوجها المدلل، فقد وفرت له كل شيء تمناه، لم تحمله مسؤولية.. وخالجها إحساس بأنها هي أيضاً دمية جميلة اختطفها من محل راق للألعاب وقدمت له؛ ليلهو بها بعد أن حاول تفكيك أجزائها واستخراج أشياء يكرهها فيها هي مشاعرها... كينونتها... أعصابها، لكنه لم يستطع فحاول بالصراخ واللعن والوعيد حتى تبادر إلى رأسه فكرة لم يتأخر في تنفيذها.

لقد استفزها بشتى الطرق... أوحى لها بلهوه بالألعاب كثيرة مثيلاتها، ولكن دون الذي كرهه بها!

أزكمت أنفها رائحة الخيانة، حتى تراءت لها صورة والدها وكأن وجهه قمرٌ أبيض قد زينت جنباته تلك الشعيرات فصار شعاعاً ينشر النور حولها.

كانت تلك اللحظة كفيلة بأن تطفئ فتيل القهر في أعماقها، فأحست بسكينة روحية أبحرت معها لا تعرف إلى أين ...

كم تمنيت أن ترجع الأيام؛ لتقول: لا... لا... لا أريده؛ لأنّ بيننا فوارق.. فوارق كثيرة، لكنها عادت وقد صممت على التوقف!

كرامات مطعونة!!!

بدأت المرأة أمام ناظرها مجرد أمواج متلاطمة تعكسها أحاسيس قد جاشت من أعماق وجدانها المطعونة، كحمامة جريئة تبحث لها عن ملاذ من تلك الأوجاع!!!

عاشت معه قساوة الحياة وذاتت شظف العيش، كانت له ظله الذي لا يتوارى... وأتى يوم... أسقط فيه أحدى الأمانى في حياتها... اجترت آهاتها وكأنها سيف قد سُلَّ الآن من القلب بعد أن انشطر نصفين... نصفٌ يخصها والآخر، فليرحل.. يبتعد عن جوفها، فلم تعد تتحمل وجوده ساكناً حنايا جسدها الهزيل.

دوت صرخة حرة مندفعة من ذلك الرسم الخاوي الذي احتل جزءاً من السرير... فهمت الممرضة مغزاها... فغرزت إبرة في وريدها حتى غاب وعيها عن الوجود حولها، سقطت كما تسقط نخلة خاوية وسط صحراءٍ قاحلة، فهربت بذاكرتها إلى البعيد... البعيد.

لم تكن تتصور أن يحدث ذلك... لقد أحبه وذلت جميع الصعاب لأجل راحته وكانت حصيلة تلك الرحلة ثلاث براءات... كم كانت تحلم.. كم كانت تتخيل ذلك الجو الضبابي الحاني يرافقها وترافقه فتتملك

أعماقها نشوة وإحساس مشبع بالشموخ؛ لترتسم صورة جبال «الألب» في ذاكرتها، فتري أنها تعادلها طولاً وارتفاعاً.

كانت تحدث نفسها عندما تجتمع بشقيقاتها، وهن يحكين عن تلك الرحلات والذكريات بأنها حتماً ستحكي لهن يوماً ما كذلك، ولكن! لم يتحمل أن تتحدث في تلك الموضوعات بحجة ضيق ذات اليد وكانت تعتقد أن رحلاته فردية.

صبرت واحتسبت... كانت تجهز له حقيبة سفره مهانة الأحاسيس ملغاة الكرامة ولم تكن تعلم أن هناك حقيبة لامرأة أخرى تنتظره عند باب شقتها هي حصيلة تشجيع زملاء الفضائيات في سهراته !!

كان يرحل كعادته في كل مرة مصطحباً زوجة ثانية وعالماً آخر وكأن مهمتها هي إعداد سعادته وراحته هو فقط !!

زارتها إحدى الصديقات في آخر رحلة له، وقد وصلت للتو من إحدى الدول الأوروبية لتزف لها خبر زواجه من أخرى منذ عدة سنوات وسعادته معها في تلك الرحلات على مرأى منها في كل رحلة يسافرها !!.

لم تصدق... لا تريد أن تسمح للكلمات الجارحة أن تمر عبر مسامعها...

بكت... واجهته... لم ينكر...

عاتبته بكلمات قليلة، وغابت هربت بذاكرتها عن عالمه الجاحد.

أنفاس لا تعود...

كان الكل فرحاً...

الكل تسري في أعماقه نشوة إيمانية عظيمة، فالليلة أولى ليالي رمضان..
فالنفس البشرية حالها كحال سائر مخلوقات الله، إلا أن طهارتها
وطيب ريحها تكون بالعبادة الخالصة لله وحده، وأداء كل ما هو مفروض
عليها، وتكون هذه النفس المخلوق المتكامل الذي زوده الله بالعقل الذي هو
محور التفكير ودليل البصائر، وتكون تلك النفس بذلك العقل باقة فواحة
حسنة المظهر نيرة القسمات حلوة التعبير.. بل إن كل ما يخرج عبر رسمها
يكون راحة للقلوب والتعبه والأنفاس الثائرة المترددة..

كانت القسمات في تلك الليلة تتلون بالراحة والبشر بمناسبة حلول
الشهر مع رجاء عميق بأن يكون الشهر كاملاً من نصيبها..

إلا هي!، فقد كانت متوسطة الطول.. بيضاء ناعمة القسمات يكسوها
شعر فاحم السواد قد حل محل الوشاح، فستر قامتها..

كل شيء في حياتها لهو.. تسلية ما تتردد أن تهمل تلك التسلية أو تتنازل
عنها لمن يطلبها.. شيء واحد فقط هو ما أدخل البهجة على قلبها..

إنها مفكرة المواعيد الخاصة بأحدث المسلسلات والأفلام الأجنبية..
في ذلك الشهر..

اتخذت خطة رسمتها بإتقان تتلخص في النوم نهاراً والاستيقاظ قبيل أذان المغرب؛ لتتناول الإفطار، ومن ثم تستلم «الريموت» وتنتقل بين القنوات ببراعة...

اقرب العيد.. لم يتبقَّ عليه سوى أيام معدودة، صممت على زيارة الأسواق بعد أن بقي عشرة أيام على رحيل هذا الزائر الغالي.

كانت والدتها مرهقة... تعبـة... تدعولها بالهداية!!

وفي ذات يوم من هذه الأيام العشرة اقتنت ما اختارته من أحد المحلات المعروفة التي تربع على كل جزء من أجزائه ماركة عالمية لذلك المصمم الأوروبي.. وفضلت عائدة إلى المنزل.

وضعت ثوباً بالخزانة.. وآخر لدى المشغل، ثم هرولت نحو الهاتف وهي منتشية، فأدارت قرصه لحظة وعلا صوت قهقهات... كانت تحادث صديقتها التي دائماً ما كانت تحاول دعوتها إلى الله والأجواء الإيمانية، فقالت: لا تتعبي نفسك، فما زلت في عمر الزهور والموت لا يقطف غير الزهور الذابلة!!

حوقلت صديقتها بحسرة وهي تدعولها بالهداية ووضعت السماعة. وفي ذلك الصباح كانت عقارب الساعة التي احتلت مكاناً بارزاً في الصالون تشير إلى التاسعة صباحاً... استيقظت الأم على وجل، وهي لم تتسَّ طلب «ريم» في إيقاظها في هذا الوقت؛ لتستعد للذهاب إلى المشغل لعمل بعض التعديلات على فستانها وتبعاته.

ما إن دخلت والدتها إلى غرفتها حتى علا صراخها وهي تستنجد
بمن في المنزل...

فريم باردة الأطراف يعلو قسماتها الرقيقة اكفهرار... وكأن خبيرة
التجميل قد تفننت في طليها بطبقة كثيفة من السمرة الشديدة...
هب الجميع إلى غرفتها، وهم مذهولون وحاولوا مناداتها أو حتى
الإطباق على أناملها الباردة إلا أن... ملك الموت كان أسرع إليها من
غيره... فرحلت تاركة وراءها حسرة والدتها.. وفساتينها ذات الماركات
العالية.. ومواعيدها.

رحلت ريم وهي تحمل ثمانية عشر ربيعاً، وللأسف لم تكن مبتسمة..
ولم تعد قسماتها صباحية إنما احتلتها من كل جانب علامات الذبول...

obeikandi.com

دعوني ألتقط أوراقى

لم يكن مهند ذو الأحد عشر ربيعاً يجهل معنى ما تسرب إلى أذنيه من كلمات أنهت الجدل بين والده ووالدته وسكنت أصواتهما بعدها، فاحتل كل منهما زاوية من زوايا الصالون الفاره.

كان له منزل هاديء وأب طيب وأم حنون وأخوة ولم يعكر صفو الحياة شيء، إلا أنه ذات يوم استيقظ على جلبة قوية من الصراخ وكانت المرة الأولى التي يسمع فيها والديه وهما يتخاصمان بصوت عالٍ يشوبه التحدي وكان ذلك بداية لسلسلة من الجحيم فانقلب ذلك البيت الهادي إلى نار مستعرة.

حاول أن يبكي فلم يستطع، حمل شقيقه الأصغر ولزم غرفته محاولاً تنويمه.. فنام الصغير وخلد بجانبه عبر بوابة الأحلام المليئة بالوحوش والمكائد ومصيدة كبيرة أطبقت عليه وعلى شقيقه!!

و ذات يوم وجد نفسه أمام وجهٍ جديد ترتسم عبر ملامحه علامات الغضب والنفور، حاول التأقلم، ضغط على ما تبقى لديه من أعصاب، كان المنزل أشبه ما يكون بمعتقل صارم... بمصنع يملؤه الضجيج حتى يحضر والده.. فإذا حضر سكنت حركة الجميع... حتى هي تلبس القناع الأبيض المبتسم المشرق، وكأنها أخرى غير التي كانت قبل قليل..

لقد فتح عينيه ذات صباح على وجه أبيه وهو يوقظه طالباً منه أن يشاركه هو وخالته الإفطار... (والمدرسة)..؟ قالها مهند بفرح؛ لأن والده لا يتناول إفطاره قبل الثامنة وهو قد قطع العهد على نفسه بأن يصل ويستقل بعد أن يتسلح بالعلم ليصل إلى الهدف...

لكنه عمل ما طلبه والده منه وجلس ليستمع.. قال له والده: لقد كبرت يا مهند، وقد قررت إعطاءك السيارة، بشرط أن تكون رهن إشارة خالتك وأطفالها في أي مشوار يطلب منك!.

أغمض عينيه ثم فتحهما وكأنه عرف القصد.. فحدث نفسه: وليكن... لا يضر، فهي فرصة للذهاب إلى والدتي والاطمئنان عليها، ومضت الأيام ومهند سائق العائلة..

وبدأ يتسرب من المدرسة ويهمل ويتغيب؛ لأنه لا يستطيع أن يوفق بين عمله الجديد هذا والمذاكرة؛ فهو يدخل غرفته مساء مهدود القوى خائر الأعصاب، فيرتمي على سريره ويغط في نوم عميق لا يصحو منه إلا على صوت خالته تطلب منه إيصالها إلى مكان ما، فيصحو معكر المزاج وقلبه يتقطع، ففي ذلك الوقت أقرانه يؤدون امتحان مادة ما... وهو...

لقد نفذت خطتها وقطعت عليه طموحه فتهاوى إلى الحضيض!!

تذكر ليلة البارحة، عندما خطف نفسه من بين الأوقات بعدما أوصل خالته للمشغل وطلبت منه الانتظار خارجاً... كيف استقبله زوج والدته وتشاجر معه...

كيف كان موقف والدته السلبي تجاهه، فهو لم يفعل ما يفضب زوجها ولم تتعد زيارته لها الدقائق..

شعر بمرارة شديدة، وهرول مسرعاً نحو الحمام فغسل وجهه ولبس ملابسه وركب السيارة في انتظارها..

دلفت من الباب، قائلة له: سنمر على إحدى رفيقاتي ونصطحبها معنا إلى السوق..

لا أريدك أن تتكلم بكلمة واحدة مفهوم..
هز رأسه صامتاً.

سارت السيارة يغلفها الصمت.. شق رنين «الجوال» الهدوء، فردت: نحن بالقرب من منزلِك، هيا استعدي..

ما هي إلا ثوانٍ وركبت صديقتها بجانبها، بدأتا تتحدثان في بهو وسعادة، فطرح صديقتها موضوع السائقين والخدم وأنها تحسدها على هذا السائق المؤدب...!!!

قالت زوجة أبيه: هذا سائق عندنا منذ زمن وهو جيد يسمع الكلام..
أراعه ما سمع فحاول تبنيها إلى أن هذا لا يصح، وقال: هل أنتظرك يا خالة، فهذا هو السوق..!!

صرخت صديقتها: إنه عربي..!!

التفت إليها معلقاً: أنا مهند ابن زوجها ولا أعرف لماذا تقنع نفسها بأني سائق ممتَهَن؛ فكل ما أؤديه من خدمة إنما هو مراعاة لرضا أبي وعدم إزعاجه وحمل بعض الهم عنه لا غير، ولا أتقاضى مقابل ذلك ريالاً واحداً!؛

صرخت خالته في وجهه وهي تتلفظ بأسوأ الألفاظ نحوه وتنتعته بالفاشل، وأنه مجرد شيء تافه، ففتح باب السيارة ورمى المفاتيح عليها وسار راحلاً إلى المنزل الذي وجد والده باستقباله يتلون غضباً وحنقا عليه؛ فقد اتصلت زوجته تخبره بما فعل وانها عليه ضرباً حتى فقد توازنه وسقط على الأرض وهو يبكي، بعدما تعرض لأذى نفسي وجسدي.

حاول أن يوضح لوالده خطأ خالته.. ولكن سحب نفسه لغرفته السقيمة ورمى بجسده على السرير، فتهاوى داخله الألم وفار رأسه من الغيظ، وقرر شيئاً!

حمل الأوراق وما حصل عليه من شهادات لم تتعد بدايات المرحلة المتوسطة وانسحب بهدوء..

كان يسير وهو يلهث من التعب، فقد قاربت الشمس على المغيب.. وهو بلا مأوى.. حتى وصل إلى ورشة لإصلاح السيارات ليسقط بجانب جدارها المتهالك! لا يعرف بالضبط كم من الوقت مضى.. كل ما يتذكره أنه أفاق على صوت شخص يوقظه، قد بدت عليه ملامح الوقار والطمأنينة، ويكسو وجهه نور الإيمان.

همس: أنا آسف، فقد كنت متعباً!

طمأنه الرجل وأدخله الورشة فسمع له، قال مهندس: إن سمحت لي سأعمل لديك مقابل إقامتي وطعامي فقط؛ حتى أتعلم فنون الميكانيكا، فهل تتكرم علي وتمنحني هذه الفرصة؟

هز الرجل رأسه، مؤكداً له أنه يلمس الأمانة في عينيه، ويجب أن يحرص على سلامة المحل وموجداته.

مضت الأيام «بمهند» وهو يعمل بجهد وإخلاص على ترتيب الورشة وإظهارها بمظهر جذاب ونظيف، حتى تغيرت ملامحها وصارت بشكلٍ آخر؛ فأقبل الزبائن عليها وزاد دخلها مما أدخل السرور على الرجل وقرر منح مهند مكافأة مالية، ليصرف بها أموره ويشتري لنفسه ملابس نظيفة.

صار يدرس ليلاً ويعمل نهاراً حتى أتمَّ المرحلة الثانوية بجدارة لم يتوقعها صاحب العمل، مضت أيامه وهو يمشي حذراً خائفاً..

ففي أحد الأيام كان يسير، فمر من أمام رجل يتصفح إحدى الصحف فرأى صورته في الصفحة الأخيرة وقد علتها جملة: (مفقود؛ الرجاء البحث عنه).

بالطبع لم يكن غير والده الذي يريده سائقاً لزوجته القاسية، في تلك الليلة لم يذق طعماً للنوم، فما بين يديه يثبت أنه حاصل على الثانوية العامة بجدارة.. بل ويمكنه مواصلة تعليمه الجامعي فما المانع؟!

قرر محادثة صاحب الورشة ورجاه أن يستبدل بدوامه الصباحي دواماً مسائياً، حتى يتسنى له العلم والعمل..

ابتسم الرجل ابتسامة المعجب بتصرفه ووافق على الفور...

خاض غمار الجامعة ومعتك التعليم العالي، فبذل وأعطى ونجح.. وتمر السنوات، وها هو على أعتاب التخرج إلا أن زوجة والده تحاول التشويش عليه بإرسال إرساليات للبحث عنه، فقد جن جنونها عندما شكت أنه من الممكن له أن ينجح وحده في الحياة.

لقد كان يسير بجانب الحائط لا يرى غير طريقه؛ حتى يتفوق وينجح ويتخرج بجدارة. دخل عليه صاحب العمل والبشر يكسو وجهه يهنئه ويعرض عليه أي مساعدة يريدتها؛ كي يبدأ حياته العملية وحده..

لكن «مهند» قرر أن يبقى بجانب الإنسان الذي عطف عليه وساعده، بعدما رآه وقد كبر سنه وضعفت قوته، فكان له ما أراد.

ذات يوم تفاجأ باثنين من رجال الشرطة يلقيان القبض عليه ففزع متسائلاً: ماذا هناك!

أخبره الشرطي بأنه سيعرف التفاصيل بالمخفر أمام الضابط وهناك ووجهها لوجه أمام والده الرجل الصلب الذي نعته بالسارق والخائن، وجد أمامه سيلاً حافلاً من التهم الجارحة؛ فقد اتهمته زوجة أبيه بسرقة مصوغاتها قبل الهرب، فانهالت المشكلات على رأسه، كأنها مطرقة صلبة لا ترحم، ولأول مرة تنهمر الدموع على لحيته، منذ أن ترك منزل والده وبنى حياته وهو يرجو الضابط بالتمهل، فلا صحة لكل ما قيل!

زُجَّ به في السجن لأربعة أيام وأفرج عنه بكفالة ذلك الرجل الطيب الذي حضر إلى السجن ونفى كل ما قيل عنه واصطحبه إلى منزله وهو يحاول تهدئته واختلاق العذر لوالده المغلوب على أمره.

لكن الكآبة والحزن قد تغلغلا في أعماقه وبات ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود، زاد همه وحزنه خبر موت شقيقه الصغير تحت عجلات السيارة، وهو يلهو، مهملاً من زوجة والده.. رث الثياب.. جائعاً.. تسكن نظراته ألوان من الغربة؛ فها هو في منزله، ولكنه غريب الدار..

وغريب الدار ذاك قرر الرحيل..

كان مهند يأمل أن يجد سكناً نظيفاً يليق به ويضمه عنده ويعوضه سنوات الحرمان ما بين أم أنانية.. وأب ظالم.. ولكن القدر لم يمهلته حتى يستقر تحت ظل أخيه الأكبر.

فهذه الحياة تخطف أمانينا.. حتى تتضاءل أنوار شموعنا فتعيش على هامش الظل الخافت بين الشك واليقين.

أصابه نوع من خيبة الأمل، وهو يحاول الوصول إلى أهدافه التي ضاعت أدراج الرياح..

كان صاحب الورشة بوقاره وطيبته يحاول بذل المستحيل؛ حتى ينتشله من براثن الجوع والضياع فيصل به إلى بر الأمان، حتى نجح واستطاع أو حاول نسيان الماضي، فكانت صورة شقيقه «سامي» تتلاشى بسنواتها السبع كل ليلة وفي كل منام !!

قرر الهروب من تلك المدينة والاستقرار بمدينة أخرى، فكان له ما أراد ومما شجعه على ذلك أن صاحب الفضل عليه كان قد قرر الرحيل إلى تلك المنطقة؛ ليعيش بين أولاده وأحفاده.

رحل.. ورحلت معه ذكرياته بآلامها وأتراحها، وها هو ينحني تحت مكاتب الحياة؛ ليلتقط ما تبقى له من أوراق.

obeikandi.com

راحلة... عبر مرفأ الذكريات

كانت الأستاذة تدور حول المقاعد التي تلبسها القلق.. تلتفت هنا وتدير ظهرها هناك، حتى استطاعت ضبط مها وهي تنقل ما بقي من إجابة عن طريق برشامة صغيرة!.

نهرتها بصوت عالٍ ووضعت خطأ أحمر برأس الورقة وساقتها إلى الإدارة. رجع الهدوء إلى الصف، إلا أن التوتر بادٍ على كثير من الوجوه التي يعلوها العرق، فمكيف الصف لا يعمل منذ مدة طويلة، ومهندس الأعطال في إجازة! وما هي إلا لحظات وجمعت الأوراق..

وخرجت.. كانت تسير، وهي تشعر بأن من يسير معها يعرف إلى أين وجهتها، فعينها فقط مركزتان على الطريق، أما فؤادها... أما قلبها الحزين فقد استقل زورق الصعاب، وها هي تخوض المعركة، محاولة الخلاص من الأمواج العاتية، ولكن...

وصلت إلى المنزل، وقد بلغت أحزانها الذروة، تلتفتها والدتها وهي تحثها على الصبر واحتساب الأجر، ثم دلفت من باب غرفتها واستلقت.. مبحرة.. مسافرة... وتذكرت: بالأمس كانت هنا... كنت أتضجر من أي حركة يصدرها رضيعها...

بالأمس كانت ضفائرها السوداء المسترسلة، ومسحة الشموخ المنبثقة من عينيها السوداوين.. وحتى أنفها الذي احتل قسماتها ببسالة.. تستفزني.. تثيرني، تشعرني بقوة الإحساس بطمسها.. واليوم!!

انتصبت واقفة أمام المرأة، ورأت نفسها... شقراء، وجهها كدائرة كرة مفلطحة... عيناها تميل إلى الاخضرار... كل هذه الصفات ورثتها عن والدتها التي كثيراً ما كانت تقلق قلب نورة تلك شقيقتها من أبيها!

تذكرت حين كانت والدتها تدخل الغرفة ليلاً وتغطيها وتطبع قبلة على جبينها فتسمع تهيدة عميقة قد صدرت من جانبها.. من السرير الآخر.. «لنورة» التي تسبل باقي الغطاء على وجهها حتى لا نكتشف الدموع التي تسربت على خديها..

حدثت نفسها..

لقد نشأنا سوياً.. وبعدها فقهت الأمور سألت أبي عن سر اختلاف الصفات بكل منا..

وتفاجأت عندما قال لي هامساً:

نورة تشبه والدتها كثيراً رحمها الله.. وأنت مثل والدتك!..

منذ تلك اللحظة اتضح لي حلّ اللغز، وعرفت سر اهتمام والدتي بي وحدي والضغط على أختي بالأعمال المنزلية دوني..

حتى ذلك اليوم الذي تسرب الخبر عن موعد ملكتها على أحد الأشخاص! كانت مستسلمة طائعة، في عينيها بريق الحزن، وفي قلبها الكدر المدفون! فقد حكم عليها بالتوقف عن مواصلة دراستها، زفت إليه واستقلت زورقها بجانبه لا تعلم ماذا يحمل لها من أقدار؛ ولكن تفاجأت، لقد استردت جزءاً كبيراً من الثقة بنفسها.. أصبحت لها شخصية مميزة وصار لها كيان!!..

وبما أن الأيام لا تدوم على وتيرة واحدة..

فخلال ولادتها الطفل الثالث شاءت إرادة الله أن تتوفى مختمة بذلك
أروع صورة من صور الطاعة لربها ثم لزوجها المحب وبذلها لأطفالها!..
وتتوقف برهة ليجتاح مشاعرها نوع من التأنيب.. نوع من الشجن
الممزوج بالإصرار على التضحية..

لقد طلبت من والدها أن يعرضها على زوج أختها زوجة مخلصة
محافضة على أطفال أختها ومصرة على تربيتهم! ويقبل الزوج...
اليوم هو آخر أيام الامتحانات السنوية، كانت تحتل مكاناً وسط
زميلاتها ولكنها بعيدة عنهن بأحلامها... آمالها... ما تصبوه له نفسها
من تضحيات!.

كانت عازمة على بذل المستحيل لكي تتخيل عيني «نورة» وقد أشرقت
بالفرح، على العكس مما كانت تراه من دموع قد كحلت نظراتها التائهة
وسط عائلتها!.

في تلك الليلة كانت تستعد للرحيل معه، فهي ليلة زواجها منه، بالطبع
دون دفوف..

دون أنوار.. دون فرح، فما يعتمل بأعماق الزوج من حزن وإن مضى
على وفاتها سنة كاملة كفيلاً بأن يلغي جميع أنواع الفرح في نفسه..

وتدخل حياته.. ولكن.. كان ينظر إليها كزوجة فقط.. كمربية.. كأماً
لأطفال فقدوا أمهم.. أما العشق الأسطوري.. أما رائحة الحب الفريدة
فلن تتكرر مرة ثانية أبداً أبداً!.

كانت تصارع أنواعاً من القهر والكدر والألم بل والإحساس بالغربة وهي بجانبه.. عندما تهز كتفه توقظه وهو يبكي نائماً يرجوها بالأ ترحل ويناديها باسمها على مسمع من أختها التي أصرت على التضحية وتحملُ المسؤولية التي طمست معالم البهجة بدخول حياة جديدة ينتظرها مستقبل مجهول..

في ذات مساء كانت السماء ترش قطرات خفيفة من المطر.. استقل سيارته وتوجه نحو البحر.. فقد كانت تتحول إلى شاعر مسحور عندما تجلس أمامه وتلك القطرات تغسل قلبها.. وهو يسمعها.. ينصت دون حراك خوفاً من أن تتوقف...

شعرت بالإحباط... تلمست مشاعرها فوجدتها قد رحلت منذ زمن... منذ زواجها هذا - قررت التوقف.. أمسكت قلماً وكتبت:

«كان يراودني أمل بأن أكون الأم والزوجة والحببية، ولكن وجدت أنني واو زائدة بين أحرف حياتك، فعذراً لاقتحام مملكة أحلامك الخالدة»...

التوقيع داليا!

أوراق متساقطة..

كان الغروب قد أوشك على الرحيل، وقطرات خفيفة من المطر بدأت بالتساقط..

أطلقت زفرةً شديدة عبر نافذة الزجاج المطلة على الشارع العام فأحدثت خريشة غير متناسقة عملت خطوطاً عشوائية عبثت بالطبقة التي غلفت زجاج النافذة من أثر الضباب.

ألقت النظرة الأخيرة على هذا المنظر الرائع الذي صنعه يد البارئ بتناسق جذاب يوحي لها أنه مرآة لما يعتمل بكيانها وأحاسيسها في تلك اللحظات.

وتوجهت إلى المذياع وأدارته وأنصتت: وقع هجوم مسلح بالدبابات والمدافع الثقيلة على إحدى الدور في فلسطين المحتلة أسفر عنه استشهاد تسعة عشر شخصاً منهم سبعة أشخاص من عائلة واحدة!؟.

استشهاد طفلة في أثناء تناول طعامها مع عائلتها بمنزلها إثر صاروخ غادر.

انتشار الفوضى والشتات إثر تشابك الأحزاب وإطلاق أعيرة نارية أدت إلى مقتل عدد منهم!؟.

تعالق أصوات الاستغاثة وطلب النجدة عندما دوى صوت انفجار في إحدى البنايات شمال.... و....

نهضت مسرعة، وعندما أحست أن هناك صوتاً حاداً وألماً صارخاً يغزو رأسها الساخن ويعبث بكيانها المتلاطم وهي تشعر بالإحباط والحيرة لما تسمع وترى من حروب ومشاكسات كثيرة انتشرت كأنها التراب فوق رؤوس البشر...

فتن.. حروب... تشتت ... انقسام وماذا بعد... اللهم رد كيد الكائدين
إلى نحورهم واحمنا وبلدنا وديننا ممن أراد بنا سوءاً.

أفقلت المذيع وهي تتمنى لو أنها لم تفتحه .

شعرت بالملل.. قررت أن تخرج إلى أي مكان تنسى به هذا الصراع
الأخطبوطي الذي توزع على رأسها.

استقلا السيارة معاً وسارا مسافةً ما إلى أن وصلا إليه...

إنه مكان هادئ رومانسي تغلب على أثاثه الكلاسيكية والأصالة الهندية،
في المدخل يستقبلك نادل يرتدي الزي الهندي فيفتح لك الباب مرحباً بك،
وفي البهو العلوي الذي احتل تقسيمات متعددة تشعر من يرتادها بالراحة
النفسية والخصوصية التامة.

دلفا من خلال البهو إلى الزاوية المقربة إلى نفسيهما وجلسا... ما هي
إلا دقائق حضر بها النادل عارضاً عليهما قائمة الطعام، اتفقا على وجبة
خفيفة وجلسا يتأملان...

طفلان يعبثان بالستارة الخاصة بهما فيطل وجه أحدهما منهما
ويبتسم ثم يهرب، فتأتي شقيقته وتطل هي الأخرى وتتكلم بلهجة هندية،
على ما يبدو إنه ترحيب أو اعتذار عن فعله أخيها الصغير وتذهب، أكثر
ما شدها إلى الطفلة شعرها الأسود الفاحم الطويل.

فجأة تنهض إلى سمعيهما أصوات قادمة لم تكن لغير مجموعة من
السيدات اتقنن على المكان المجاور لهما.

جلسن وتبادلن التحية وأبدین نقدهن على «مشاعل» لبعدها المكان وطول المسافة، إلا أن «مشاعل» قهقهت وهي تقول هو الأقرب إلى أكلاتنا التي لا تخلو من البهارات المنعشة...!

رن صوت «الجوال» وأنصتت عندما شدتها المناقشة...

- هلا «هنادي» وين «مشاري» نائم أم لا ؟؟

- «مشاري» يبكي وتعبان، متى تجي يا ماما؟؟

- ماما «كارمن» تريد محادثتك.

- ماما «مشاري» فيه حرارة كثير؟!

- أنت يعطي خافض حرارة «5 مل» وكله نوم مفهوم ؟!

أفقلت الخط وهي تتضجر من الوضع، والبقية تكاد تغطي أصواتهن ومناقشاتهم على صوتها.

قالت: تعبت، أشعر بالملل والسأم مما يمر بحياتي، منذ الصباح الباكر وأنا أصحو وأهيت نفسي وأطمئن على الصغار حتى ذهابهم إلى مدارسهم، ثم أستقل السيارة بعد جهاد في إيقاظ زوجي من نومه الثقيل إلى المدرسة حيث الدوام، ولسان مديرتنا الذي لا يرحم، ثم أعود بنهاية الدوام مهدودة القوى، فأؤكد من أن أولادي قد أنهوا وجبة الغداء مع الشغالة، أصدع إلى غرفتي وأنام قليلاً حتى أستطيع تحضير بعض الدروس عصرًا ومراجعة دروس أولادي؟.

التفت «جواهر» نحوها وهي تتساءل: ولماذا كل هذا التعب، الأولاد أحضري لهم معلمة، والدوام أحضري لك سائقاً، أريحني رأسك من النكد وحرق الأعصاب.

تحدثت أخرى: ألا تعلمين ها أنا سائقي تحت خدمتي وأولادي لا أعرف عنهم غير التقارير التي تصلني؛ إن كانت جيدة الحمد لله، وإلا عليّ البحث عن معلمة غير التي تأتي لتعلمهم.

وأنا وزوجي اتفقنا على أن لا يكلم أحداً الآخر أو يتدخل بخصوصياته ومشاويره، نحن والله الحمد نثق ببعضنا، والشغالة تقوم على خدمته وهندامه على أكمل وجه، وماذا بعد؟!.

صعقت «منيرة» لما سمعت وهي تنظر إليهن بعين الحذر، قد فكرت كثيراً قبل الموافقة على دعوتهن هذه، حتى في بعض اللحظات يخامرها إحساس بالتمني لو أن زوجها معها الآن في هذا الجو الجميل دون رفيقاتها وأفكارهن.

حتى «مشاري» الصغير سلمته وللمرة الأولى بحياتها إلى الشغالة وهو يعاني من ارتفاع بدرجة حرارته، أي قلب هذا الذي يتربع وسط صدرها بأمان. قطع عليها تفكيرها ومعاتبتها نفسها صوت «بدرية» وهي تسأل «جواهر» عن زوجها الآن أين هو؟

ردت عليها «جواهر» ببرود بأنها لا تعرف ربما باستراحة أو مقهى أو... لا تعرف ولكن لا يهم؛ استنصرت «منيرة» وهي تقول لها: ولماذا كل هذا الأ تخافين من عاقبة ذلك.

قالت: «جواهر» هو البادئ... تخيلي منذ ثلاث سنوات كان يذهب من أذان المغرب مباشرة ولا يحضر للمنزل قبل الثانية والنصف ليلاً، وأنا كنت وقتها أحرق في أعصابي ودمي وهو لا يهتم لذلك، حتى قال لي

مرة: اخرجني مع رفيقاتك، لا تجلسين فريسة للأوهام والهواجس، فجريت الخروج وها هي تكررت مئات المرات.

صحيح أنني أشعر بمرارة لعدم التقائنا إلا نادراً، فأنا أحضر إلى المنزل وأنام، فيحضر هو ووينام. وفي الصباح أذهب قبل ذهابه إلى مدرستي، وفي المساء هو يخرج بعد أن يصحو من نومه وأنا كذلك.

أما الأولاد... الأولاد... فهم و...؟

قاطعتها «منيرة» وهي تقول في يد الشغالة؛ في يد إبليس تتلقفهم القنوات وتزرع في أفكارهم وعقولهم بذرة الشر والدمار، ونحن كل واحد منا يعاند الآخر ولا يهتمه غير نفسه، أفهمتي نفسه فقط؟! وكل هذا وأنت مرتاحة الضمير وهو خالي المسؤولية وكأنه قد وضع لهم النجاح والثقافة والثقة والأفكار النيرة عندما زج بهم أمام هذا الطبق دون رقابة أو اهتمام لما يتلقفونه، وتفرغ هو لزملائه وسهراته.

كانت هذه المناقشة كفيلة بأن تشعل بقلبها نوع من الندم والإحساس بالضيق لكثير من الأسر التي من المفروض أن تبني جيلاً واعياً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بوالديه، كيف سيحصل ذلك وسط هذه الأجواء التي يعيشها الجيل سنة بعد سنة!.

حضر النادل يحمل العشاء وهي تنظر إلى زوجها بفخر وسط رائحة الطعام الشهية الدافئة، متمنية من الله أن يديم عليه ما هو به من أخلاق، وأن يوفقه ويسدد خطاه، ويرزقه برّاً أطفالهم بهم غداً عندما يتلفت كل أب وكل أم إلى من يكونون لهم عمداً ونبراساً يتلمسون به الطريق... إلى الجنة.

obeikandi.com

رفعة...

كانت إشراقة الشمس الخفيفة وقطرات المطر المتساقطة على رؤوس
الفلاحين بشرى خير وعطاء تدخل على القلوب نشوة وابتهاجاً.

انتصب كل فلاح يحمل فأسه فوق كتفه وكأنه يقف لحظة احترام لهذا
الزائر الكريم ويراقب أسراب الطلاب السائرين بجانب الطريق وقد
غمرت أنفسهم السعادة من رائحة الحياة المشبعة بأريج الزهور وبرودة
الندى المتساقط من الأغصان.

صورة أبدعها الخالق - عز وجل - تدفع الفلاح إلى أن يكون شاعراً ينثر
أرق الكلمات مع قطرات العرق الباردة.

لمح العم «عبدالله» ابنه ناصراً وهو يحتضن كتبه متوجهاً إلى مدرسته
بجد ونشاط؛ فابتسم له وهو يلوح بيده ويدعو الله له بالنجاح، فهذه السنة
النهائية لمشوار تعليمي باهظ وطويل عليه.

أطلق تنهيدة عميقة وهو يتأمل (ناصرأ) يساعده في الحقل بعد النجاح
ويكون له اليد اليمنى حتى يرتاح في خريف عمره المجهد ويشعر بثمرة
جهده وصبره طوال تلك السنوات.

انتهت الامتحانات وظهرت النتائج فكان من المتفوقين، ولم ينس أبداً
أن يبحث عن اسم «رفعة» تلك الحلم المستقبلي لحياته!

ووجده.. كان اسمها يحتل الأولوية مما أدخل البهجة والسرور على نفسه..

لقد راودته فكرة مصارحة والده برغبته في الاقتران بها وعزم على ذلك... وما إن فاتح والده بذلك حتى شعر كمن يسقط من ارتفاع شاهق وهو يسمع والده يقول: يا بني... «رفعة» تحزم حقائبها استعداداً للسفر إلى المدينة حيث الجامعة... والسكن الجامعي... والغربة...

كان وقع تلك الكلمات على قلبه كالخنجر المسموم المفاجئ! لكنه لم ييأس..

وذهب إلى صديقه فالح، يستفسر عما سمع ويحاول تشييطه عن هذه العزيمة التي أصر عليها حتى شعر أنه لا جدوى من الكلام!

حان موعد السفر... والسيارة تقف أمام منزلها العتيق؛ فاستأذنت والدتها ووالدها للسلام على جيرانها، طرقت الباب فانفج سريعا ولم يكن وراءه غير ناصر الذي وقف مشدوهاً وهو يحاول أن ينطق بكلمة فلم يستطع، كانت تدور في رأسه الفائر مئات الأسئلة... لماذا الإصرار على الرحيل؟! دلفت وسلمت على والدته وأخواته وطلبت منهم الدعاء لها وخرجت.

بالطبع لم يدر بينهما أي حديث، فمئذ تدرت بعباءتها وكانت في العاشرة من عمرها توقف الحديث مع صبيان القرية؛ لأنها كما قالت والدتها أصبحت فتاة محتشمة يجب أن تكون محافظة والألتحدث إلى الرجال..

كان أخوها فالح يعلم بتعلق ناصر بها وتعلقها به، ولكنه يعلم أيضاً أن هذا الميل والود لا يمكن وصاله إلا بالزواج؛ لذلك كان بمثابة المطمئن لصديقه بأن أخته ليس لأحد غيره.

رحلت «رفعة» ورحل فؤاد «ناصر» معها، وحطت رحالها حيث استقرت بالسكن الجامعي الخاص بالطالبات، بينما فالح استأجر سكناً برفقة مجموعة من زملائه الطلاب، مضت الأيام تباعاً نحو غدٍ مشرقٍ بالنسبة لرفعة وأخيها، بينما «ناصر» كان الليل رفيقه بعد أن رفض والده التحاقه بالجامعة أسوة بزملائه بحجة مساعدته له بالحقل! ها هي «رفعة» تستقبل أول يوم لها بالجامعة..

فتاة قروية بسيطة تتدلى فوق كتفيها ضفيريّتان بربطات صفراء، وقد وجدت مقدمة رأسها طريقتاً سوية لفرق الشعر عن بعضه..! أما أذنيها فقد استرسلت منهما حلقتان ملونتان من الخرز الأزرق، فكان منظراً ملفتاً ومضحكاً في الوقت نفسه لقريناتها بالجامعة!.

أحسّت أنها وسط بحر هائج تلطمها الأمواج من كل اتجاه.. لكنها لم تستسلم..

أصرت على حفظ الدروس والاهتمام بتخصّصها ومحاولة السير مع التيار دون مبالغة بشيء.

ذات مساء دخلت مسؤولة السكن إلى قاعة الاجتماعات وأخبرتهم بأن يوم غد سيكون إجازة، وعلى كل واحدة استلمت مكافأتها أن تستعدّ إن أرادت الذهاب إلى السوق لشراء ما يلزمها.

كان هذا الخبر بالنسبة لها بوابة التغير ومحاولةً لمسح الصورة التي كثيراً ما كانت تؤرقها.. صورة البنت القروية البدائية.

قررت صرف جزء كبير من المكافأة في اقتناء ما يجملها، فهبت مندفة إلى أقرب الصديقات..

(هيا) كانت ذو مسحة إيمانية.. نفسها مطمئنة.. حديثها تتخلله الآيات.. لبقة طيبة لا تخطئ بحق أحد وتصفح عن أخطأ بحقها، التجأت إليها، حدثتها بنيتها وطلبت المساعدة، رحبت هيا بذلك وبذلت معها أقصى ما في وسعها؛ فكانت بالنسبة لها الانفتاح على عالم مليء بالأناقة والجمال!!

من الغد فاجأت زميلاتنا.. إلا أن تلك الضفائر لم تتغير..

انتهى الترم الأول، تلاه الآخر، ومن ثم السنوات؛ وتفاعلاً الجميع، فقد كان اسم «رفعة هويل...» يحتل أول الخريجات مع مرتبة الشرف..

كانت فرحتها لا توصف، والعميدة تسلمها وثيقة التخرج وتبارك لها متمنيةً أن تكون عوناً لرفعة قريتها ونفعاً لأهلها.

فكرت رفعة كثيراً، وقررت مواصلة التعليم العالي، وقدمت أوراقها فقبلت.

كان الإصرار والعزيمة - بعد التوكل على الله - الركيزة القوية التي تسير عليها؛ فانخرجت لها الصعاب وتخطت العقبات بيسر وسهولة..

اليوم هو الأول لها في القرية تستقبل سيارتها الخاصة للذهاب إلى المستشفى المتواضع الذي أنشئ قريباً، حيث اعتدلت بجلستها على الكرسي وقد نثرت ما تبقى من ضفائرها السوداء على أكتافها بعدما تخلصت من بقيتها رغبة في مسايرة الزمن...

دخلت عليها مريضة تتألم.. كانت على وشك المخاض، فأمرت بنقلها بسرعة إلى غرفة العمليات، وسارت بجانبها حتى استقرت حالة المريضة بعد وضعها لطفلها الجميل..

مسحت عن جبينها وباركت لها وأخذت تتأمل تقاطيع الطفل وفي قلبها هاجس ماضٍ لأحلام لم تتحقق، وسألت والدته ماذا ستسمينه؟! وهي تمسك القلم لتكتب، ردت: سأسميه «عبودي» فهذه رغبة والده ناصر ال...

ضجت مشاعرها ودخلت بوتقة الماضي.. فرأت نفسها طفلة الثامنة تلعب بإحدى العرائس في الحقل، يرافقها صبي في التاسعة وهي تصرخ به احمله فإنه يبكي، فيحمل الدمية وهو يقول لها هذا «عبودي» ابنتا عندما نكبر...

وتختلط فقهقات طفولية مع زقزقة العصافير الهاربة من موجة رياح شديدة اندفعت فجأة وهزت أغصان الشجر!.

obeikandi.com

شاطئ يسكنه الصمت؟

حاولت إطباق جفنيها والهروب من ذلك الإحساس القاتل فلم تستطع..
 أبحرت عبر تأملاتها وأطلقت لخيالها العنان فامتطت زورقاً صغيراً؛
 ولكنه استطاع أن يعبر بها إلى جزيرة الأحلام متخطياً عوائق كثيرة!
 ولكن هناك... في إحدى الزوايا الغائبة في الوجدان تجذبها أصوات
 لم تكن غير أنين مرّ مصراً على التسرب نحو يقظتها.. نعم إنه الخوف..
 الشعور بعدم الأمان.. شعرت ما يشعر به المحكوم بالإعدام وهو بريء ولم
 يبلغ لحظة إعدامه..

صار يموت مئات المرات في يومه.. يترقب بصمت قاتل حتى وصل
 مرحلة من اليأس تمنى نهايتها بأقصى سرعة.. حتى يختم رحلة الألم
 ويصمت ها جس النشاز ولو لم يكن مذنباً!... ولو لم يكن مذنباً!

وجدت نفسها تجاهد لحظات الغرق حتى استطاعت الوصول لليابسة؛
 فرمت بجسدها الهزيل على الأرض، ودلفت غيبوبة الانتصار على الأمواج
 فحلمت.. وحلمت.. ورأت نفسها طفلة الأمس تلهو في البهو الشاسع المرتب
 يشاركها إخوة وأخوات تتقارب أعمارهم!

أدارت وجهها صوب الشمس، فلمحت جدتها تحمل خبزاً وتتوجه نحو
 دكة عالية نوعاً ما، فتضع الطبق وهي تتمتم بذكر الله واسمه!

هناك وخز قاتل يغزو أمعاءها .. يبليها .. تشهق .. تبتلع ريقها ، تكومت
أنامل «مها» الصغيرة المبللة بلعابها ، فرسمت خربشة غضة عبر صفحة
الأرض الملساء؛ فأحدثت تناسقاً ناعماً يحكي اغتيال طفولة!

كانت رائحة الطعام المختلط بالبارود تزكم أنفها... تغويها... تغزو
أنفاسها المتلاحقة!

تذكرت ابتسامتها التي تلمع «بسـن» صغيرة قد شقت طريقها نحو مقدمة
شفتين رقيقتين... كان لها عينان تلمعان.. تتم عن ذكاء فطري ولكن؟!
لحظة اغتيال...

رأت الجدار يهوي على جسدها الغض، فتطلق آهة واحدة فقط واحدة
وتتسمر نظراتها الأنينية، فتطبق عينيها نصف إطباق، وكأن الألم يسكن
عند سكون أنفاسها الهاربة!

ماج المنزل بصراخ يختلط باستغاثة، فر الجميع.. أما هي فقد كانت
تسير بحالة ذهول فضيع..

انحنت.. مدت يديها بعزم.. لم تهمها تلك الأحداث التي تحيط بها، لم
تستوقفها الأخطار من كل جانب..

احتوت جسد الطفلة وغمست رأسها البارد وأطرافها الصغيرة بصدرها
وعنقتها.. شعرت بأنها بأمان.. كانت تسير بهدوء ممزوج باللامبالاة بأي
شيء؛ فلا قيمة لأي شيء الآن بعدما سكنت نظرات مها!

هناك بكاء.. عويل يسد مسامعها.. يرحل بها إلى عالم مجهول.. دنيا
من الصمت المطبق على جراحت عديدة.. الآن.. توقفت لحظات القلق
عند منحى آخر..

وهذه الدنيا.. دهاليز الألم.. صفحات العفو.. سراب الانتظار...!
ولكن.. الصبر له حدود.. كان وجوده في حياتها غلطة كبرى.. لا تزال
أوجاع الذكريات تسكن أعماقها.. تتراءى لها في كل لحظة..
ليس هناك بوادر استعداد لهذا القادم... فما زال الجرح ينزف..
ولكن.. حكم عليها بالصمت المغلف بالطاعة.
دخل حياتها كضيف ثقيل.. كمشاعر بلهاء لا بد لها من إصلاح.. لم
يرتق جروحها...
لم يداوٍ وخزاتها.. بل زادها همماً.. سكن مع باقي الجراحات...
كان منها التفاتة إلى ذلك البناء... نظرة أخيرة للممت بها ما تبقى بها
من قوة وغادرت راحلة...!

obeikandi.com

شواطئ الدنيا ...

كانت عبارة عن زهرة جورية وسط فل متناثر، شاء الله أن تحتل المرتبة المميزة وسط هؤلاء الأشقاء من الذكور، فكانت بسمة المنزل وإشراقته الساطعة..

كل ضحكة أو مناغاة تصدرها بمثابة التفرغ المتناهي إلى الأسماع، وكأنه لمجموعة من العصافير الجميلة انطلقت عبر الفضاء في فرح...

لم تكن تعلم وهي حبيبة جدتها ما يضره لها الغد، وتمضي الأيام وبشرى تكبر فتكبر معها أحزانها، فها هي ابنة الرابعة تفقد أمها في لحظة خاطفة جاءت على غير ميعاد؟!

فتقلب بين أحضان جدتها وأبيها مدة قصيرة لم تتعد الأشهر، لتفاجأ بوجه جديد.. ملامح غريبة لم تألفها من قبل، يعلوها العبوس والتحدي، فترتعد ملامحها الصغيرة، ولا يسكن ذلك الرعب في أعماقها إلا عندما يقبل والدها فاتحاً ذراعيه لها وكأنه قرأ مئات الأسئلة التي تدور في رأسها الصغيرة محاولاً تقريبها من زوجته التي انقلب عبوسها انشراحاً ولطفاً في حضوره، إلا أن الصغيرة تصرخ وهي تتشبث بأطرافه طالبة الأمان والذهاب بها إلى والدتها... وهي لا تعلم بأن والدتها لن ترجع، فقد غيبها الموت؟!

وطواحين الزمن تدور...

وتفريق يوماً لترى حركة غريبة تحدث بالمنزل، فتقبل نحو جدتها التي فقدت دفتها بالفراش باكراً، وما إن اقتربت حتى فاجأتها غزارة الدموع المنطلقة عبر عينيها، فهمت بحسها الطفولي أن شيئاً ما قد حدث لوالدها... الأمل الأخير...

لقد أصيب بشلل رباعي أسكنه عن الحركة بعد حادث الساعة الرابعة فجراً؟!

وتبكي... ثم تبكي ولا تستطيع إيقاف ذلك الوادي المنهمر من مقلتيها الصغيرتين.. فابنة الرابعة أصبحت الآن في التاسعة من العمر، وعليها أن تسير الخطى بحذر.. فالיום لا معين لها غير الله ثم تلك العجوز الحنون. اليوم هو الحادي والعشرون من ربيع الثاني وبهذا الرقم أتمت الخامسة عشرة من عمرها، وما زالت تحاول إخفاء ما يختلج في كيانها من إرهاق وروح ممزقة موهمة من حولها بأنها تعيش بسعادة وهناء!

شاء الله أن تجد نفسها وحيدة بعد رحيل أبيها وجدتها...

أفاقت ذات يوم على خبر سعيد يتخلل الأحزان التي تملأ حياتها.. إنه طارق يطلب يدها.

كان أخوها ماجد يهمس لها خوفاً من علم زوجة أبيه بالخبر وعرقلة إتمامه..

إنه شاب صالح كريم مكافح شق طريقه وجمع ماله وأسعد إخوته..

فكان يسعى لتزويجهم واحداً تلو الآخر ويؤمن مستقبلهم برأس مال
وإن كان ليس بالكبير، حتى إذا تفرغ لنفسه التفت يبحث عن تقاسمه
الحياة؛ فما قولك؟

علت حمرة الخجل وجنتيها وابتسمت مع إيماءٍ خفيفة كأنها غيمة صيف.
أعطى إشارة الموافقة وفرح «ناصر» بقبول طلبه، وتم كل شيء وسط
معارضة زوجة الأب الجائرة!

ودخلت بشرى حياته، وتلمست جوانبها فوجدته إنساناً يحمل ما
قيل عنه من الصفات وأكثر، وحمدت الله كثيراً على هذه النعمة وهذا
التوفيق.

مضت الأيام بهما، وصار لديها خمسُ براءات يملؤون المنزل حركة
وبهجة ومناوشات؟!

ولكن الأقدار لم تدعها، ففي تلك الليلة الغامضة تلبسها الذهول
وسامرت جواً من الغربية؛ فقد رحل عنها عند سماعه خبر خسارته
الفادحة، وبقيت وحيدة مع أطفالها تطلب من إخوته العون عندما غرقت
الباخرة وهي تحمل رأس ماله، ففقد كل شيء.

لم تتصور أن يكون جزاء الإحسان النكران؛ عندما تنحوا جميعاً
رافضين المساعدة.

خافت أن يعلن اسمه وخسارته، أصرت على المحافظة على مشاعره
حاضراً وغائباً، اجتمعت بأطفالها وشرحت لهم الوضع وختمته باستعدادهم
للرحيل؛ فقد وجدت مسكناً في شقة صغيرة ستأويهم حتى يأتي الفرج!

عرضت تلك «الفيلا» الفخمة بمحتوياتها للبيع، وما هي إلا أيام قليلة حتى حضر المشتري، الذي تعجب من جمال هذا المنزل وأناقة أثاثه.. وكيف لأصحابه أن يبيعوه بهذه السرعة..

تنفست الصعداء ويدها «شيك» بمبلغ خيالي لم تحلم به في هذه الظروف، خيم الظلام على ذلك المسكن الصغير وجلست تفكر... وتوزع المبلغ في حسبة جيدة، تكتب اسم كل مدين وأمامه المبلغ حتى انتهت، وعندما راجعت ما بقي لها انتفض جسدها، فقد توفر مبلغ مالي جيد بإمكانها أن تبدأ به تجارة معقولة.

توكلت على الله ونامت وهي تحلم بسداد الدين في أسرع وقت ممكن... أشرقت الشمس، وكانت فعلاً شمس غد يملؤها الاطمئنان، فما هي تعود برفقة أخيها من البنك بعد أن أودعت آخر مبلغ مستحق على زوجها رحمه الله.

دخلت منزلها وعلى محياها خطوط البهجة والفرح بالرغم من أنه فرح ممزوج بحزن لفقدتها رفيق دربها، إلا أنها أحست بأنها تصرف بما أراح ضميرها.

حدثتها صديقتها بالهاتف تعرض عليها شراء مشغل بعاملاته، ففرحت ولكن الفرحة لا تكتمل دائماً، فقد فقدت المبلغ في سيارة الأجرة التي استقلتها هي وابنها البكر في طريقهم إلى صاحبة المشغل.

رجعت وهي تحاول تهوين الأمر فحدثت نفسها..

ماذا لو لم يتبق مال من الأساس؟ ماذا لو لم أرزق بشارٍ للمنزل؟..

وتمت اللهم عوضني خيراً مما فقدت..

رن جرس الهاتف كانت صديقتها أم فيصل تستفسر عن سبب عدم مجيئها لإتمام الصفقة مع البائعة...

حكّت لها ما حصل، وعرضت عليها العمل عندها كمشرفة على المشغل إلى أن يتوافر المبلغ، فوافقت صديقتها برحابة صدر، وأسرعت بشرائه لوحدها وسلمته لها للإشراف عليه وتلبية طلباته.

توالّت الأيام وهي تحاول جهدها أن توفّق بين رعاية أطفالها والاهتمام بمنزلها والعمل بالمشغل.. حتى أتى اليوم الذي كانت تنتهي فيه لحضور حفلة تخرج ابنتها الصغرى من الجامعة، وهي تحمد الله بأن يسر لها الصعاب فربت أطفالها وساعدتهم حتى وصلوا إلى مراتب عالية، وسعت إلى تزويجهم وها هي «نجلاء» آخر العنقود تتوج هذا النجاح بالتخرج بامتياز.

انتهى الحفل... وعادت إلى المنزل وهي تشعر بأن في قلبها فرح...

فرح ممزوج بحزن ورغبة جامحة في لقاء زوجها ونفض جميع ما علق بقلبها من بذل وتضحية ونجاح..

وفي الغد كان خاطب «نجلاء» قد حضر ووالدته للاتفاق على إتمام مراسم زفافهما.

مرّ الشهر وكأنه دقائق وثوانٍ بجانب حبيبته الصغيرة «نجلاء» التي غادرت وزوجها سريعاً إلى منزلها البعيد..

وتدق أجراس الصمت...

فجلس بالشرفة المطلة على حديقة المنزل الجميل الذي استردته بعافيتها وصحتها وجمعها لكل ورقة نقدية تخصها، وكان ثمنه قد تضاعف

إلا أن أولادها الذين أصبحوا رجالاً لم ينسوا جميل والدتهم التي تمت
الرجوع إلى منزل الأحلام الوردية والذكريات الجميلة، فساعدوها على
شراؤه مرة أخرى من مالكة الذي لم يتأخر دقيقة واحدة بعد معرفته
لقصة الكفاح العظيمة، ورغبته هو بالعودة إلى مسقط رأسه ليعيش ما
تبقى من عمره بجانب أحفاده.

كانت تتخيله وترى نفسها شابة الأمس الجميلة بحيويتها ومرحها،
فتنزل إلى ذلك الركن الهادئ الذي كثيراً ما جلسا فيه يحتسيان الشاي..
وتدور... وتدور حتى أحست بدوخة خفيفة أجلسها على المروج
الخضراء؛ ففتحت عيناها لترى السماء بغيومها القطنية وتتخيل تقاطيع
وجهه وتطبق عيناها نحوه إلى الأبد...!

عزوز... أحرف.. تائهة

وسط تلك الضجة التي ملأت أذنيه الصغيرتين تسلل بحذر ويخطو برفق.. حتى لا تكتشفه جدته!.. أرخى سمعه.. فها هم يتهامسون.. على بركة الله، بارك الله لك.. وبارك عليك.

نظر من ثقب المفتاح فرأى!!

رأى شيئاً لا يمكن أن ينساه في حياته.. رآها.. نعم هي والدته وقد توشحت لباساً أبيض وبدت كأنها البدر في تمامه ولكن؟

ابتعد قليلاً.. وبالقدر الذي سمح له بها الثقب.. أن يرى، راعه الأمر، فهز أركانه الصغيرة حتى تسربت رعشة قوية عبر أوصاله الغضة فارتجف قلبه وتساءل:

من هذا الرجل الذي بجانبها.. بالطبع ليس أبي «حمود» إنه ذلك الزائر الذي كان عند خالي «أحمد» واشترى لي تلك اللعبة!

يا إلهي إنه يمسك بيدها ويتوجهان نحوي.. نحو الباب..

وما هي إلا برهة حتى صفعته شدة الأنوار، فكان وجهاً لوجه أمامهما!

كانت تلك النظرات من عينيه الصغيرتين نحو والدته كفيلة بأن تفهم ما يجول بكيئونه التائهة من عتاب يملأ المكان.

أما الرجل.. أما صاحب الهدية فقد نالته نظرات من خيبة الأمل.. والاستحغار.

لم يعيراه اهتماماً.. ومضيا إلى الخارج حيث كانت السيارة بسائقها تنتظرهما.. استقلها يشقان طريقهما الجديد المحضوف برغد العيش دون مبالاة به.

جلس على عتبة المنزل يرقب غروب المركبة بما فيها، فسقطت دموعه على خديه.. وعاد للداخل يجر الخُطى وقد عاهد نفسه أن يخبر أباه بهذا الحدث الفظيع، فلم يبق لديه سند في هذه الحياة غيره.

في مساء اليوم التالي للصدمة التي تلقاها من والدته تسلل خلسة وأطلق لساقيه الصغيرتين العنان ركضاً..

اقترب من منزلهم الغالي.. تلمس جدرانها.. وشم رائحة التراب المتناثر حول الشجيرات الرطبة التي تحيط بذلك الشموخ.. تراءت له سنواته القصيرة بين جنباته، رأى نفسه يحيو.. ويلهو.. ويبيكي ويضحك.

دفع الباب ودلف منه! كانت الأنوار مضاءة ورائحة البخور تفوح في كل مكان!

أشرقت شمس والده عندما لاح محياه أمامه..

حدث نفسه... نعم هو والدي «حمود» والكل يسلم عليه.. سأذهب إليه.. سأهمس بأذنه وأخبره سراً ماذا رأيت، دون أن يسمعني الرجال، سأرتمي بأحضانها وأبكي.. سأدع جرحي المسموم ينزف أمامه ليطهره من قطرات الدم الفاسدة.

نعم.. كان يحدث نفسه بكل الهموم.. بكل القلق الذي اعتلى محياه،
ولكن راعه عدم اهتمامه به.

تذكر خاله وهو ينهره دائماً بابن...!

تساءل كثيراً: لماذا أنا هنا وحدي دون أمي التي غادرت عالمي إلى
الأبد.. وأبي القريب البعيد.. من عاش بجانبني قليلاً.. من وافق على أن
أبتعد وتنازل عني بسهولة.

وسط تلك التساؤلات اندفع نحو والده كأنه سهم محموم.. غرس رأسه
الفائر بحضنه وحاول الوصول إلى أذنه ليهمس له.. لينثر أمامه هموم
الروح المذبوحة ولكن؟!!

أباه اليوم قبله قبله باردة وأجلسه بجانبه وهو يستغرب حضوره في ذلك
الوقت بالذات، ويكرر عليه السؤال بحزم: من أتى بك إلى هنا؟

لم يعلم بأنه هاربٌ من وحش الغربة! ما هي إلا لحظات حتى ضج
الجميع ونهض والده بصحبة مجموعة من الأشخاص إلى داخل..

فدس جسده الصغير بينهم.. ولكنهم نهروه.. أبعده عن الباب..
وسمع من يقول: ممنوع دخول الأطفال!

حملوه رغماً عنه، خرجوا به إلى منزل خاله..

عند الباب سمع حامله يعاتب خاله بكلمات عرف بحسه الطفولي أنها
تعني اللوم؛ لأنهم اشترطوا أمام القاضي أن يكون لوالدته دون تدخل والده
به إلا للزيارة فقط، فكيف يتركونه يهيم على وجهه هكذا..

استلمه خاله وهو يزوج به إلى الداخل شاكراً مرافقه وعائداً إلى «عزوز»
بتلك الصفعات القاسية والكلمات الجارحة التي زرعت بقلبه الشتات،
فتلونت أمام عينيه فصول السنة بأن واحد.

خلد إلى النوم بكدر، تغسل وجهه قطرات من الدموع المرة وأنفاسه تكاد
تتقطع، ولكن لا بد من الهروب من الواقع الأليم، ولو من خلال النوم.
كان الجو قارساً.. وأنفاسه تتلاحق.. فقد عاودته نوبة الربو اللعينة..
تخبط باحثاً عن آلة البيخ.. ولكنه لم يجدها.. لا يعرف أين وضعتها والدته
قبل رحيلها؟ سعل وضغفت حركته فسقط وسط الظلام..
وهدأت.. أنفاسه!؟

الخدلان!

لم تكن منيرة ذات الأربعة عشر ربيعاً تعي ما تقوله والدتها وهي تبارك لها قدوم خاطب يريد لها لابنه.

كان طويل القامة عريض المنكبين، تعلق وجهه ملامح الصرامة والطيش، وكل شيء في حياته مجرد لهو.. تسلية لا يلبث أن يشعر بالملل منها...

لم يكن يستوعب قول والدته لوالده فلنخطب له ونزوجه لعله يعقل ويركد طيشه وتتنن تصرفاته... في صبيحة العرس جلسوا حولها مبتهجين.

أرخت كفوفها لناقشة «الحناء» لترسم على أناملها نقوشاً، في كل خط منها كانت ترمي به إلى خط السعادة والحياة الموفقة... لم تدرك نظرة الضياع التي كانت تكسو ملامحها، واستمرت بالنقش مع تعالي «زعاويد» التي ملأت جنبات المنزل...

حل المساء وتعالق أصوات الدفوف، وكست الجوموجة من الضباب الكثيف ذي الرائحة العطرة، إنه للبخور المتصاعد من بهو الصالة!.

عندها أقبل الموكب تتوسطه زهرة صغيرة لم تتفتح بعد، يعلو رأسها الصغير تاج مرصع بالماس، قد عكس على وجينتها ألواناً متتابعة

توحي لمن يراها أنها طفلة من أطفال مسرح الحياة؛ وقد أخذت هي دور العروس...!

جلست وجلس بجانبها، ليس هناك أدنى تناسب...؟

تكاد أناملها الصغيرة تلامس الأرض من فوق الأريكة... أما هو فقد تربع كالأسد بجانبها يوزع نظراته المنطلقة في كل صوب نحو الحاضرات، فيتابع واحدة حتى تختفي لتحل الأخرى مكانها في الرقص..!

انتهى الحفل وذهب كلُّ إلى بيته ...

أما هي فقد تأبطت قدرها المحتوم تصارع أفكاراً غريبة قد اجتاحت قلبها الصغير بالرعب والخوف، وانقلبت الكلمات الحلوة التي سمعتها من والدتها عن تلك الليلة إلى كوايس مرعبة، فقد كشفت لها الأيام الوجه الآخر له، ووجدت منه التسلط وعدم مبالاة بها وبمشاعرها الرقيقة!؟.

أتمت الشهر الأول، وحن وقت زيارتها إلى أهلها، فحملها هو ووالدته وتوجهوا إلى قريتها، وعند وصولها باب المنزل تسربت من بين شفتيها آهة مندفعة وكأنها رياح شديدة قد حملت أوجاعاً من جوف الصحراء لتبثها عبر الفضاء إلى... إلى لا شيء يسمع أو يستقبل. تذكرت تلك الزاوية من باب الدار وهي تلاعب إخوتها الصغار فتختبئ منهم...

تذكرت تلك الخريزات المتناثرة التي كانت كنزها الثمين في وقت مضى...

ترقرقت الدمعات الحارة، وهي تضم صدر أمها الحنون تشم رائحة أمانها وتطلق من عينيها الحوريتين نظرة عتب لما بها من حال.

توجهت إلى أختها الصغار واحتضنتهم وقبلت أناملهم الغضة وهي تبكي،
وكأن هذه العيون الصغيرة تقرأ ما بداخلها من أنهار البراكين المكبوتة!؟

أشرقت الشمس وهي تغط في نوم عميق بجانب طفولتها الحبيبة، صار
حالتها كمن وصل للتو من سفر مرهق يتخلله عراقل وكوارث كتب الله له
النجاة فحط رحاله في أمان وغط في نوم عميق... محاولاً التخلص من
تعبات هذه الرحلة ومشاقها.

أفاقت على صوت والدها وهو يوقظها، فزوجها ووالدته قد
حضرا لاصطحابها!؟

فزعت وانتثرت دموعها المنهمرة وهي تقبل يد والدها تستجديه بألا
يسمح لهما بأخذها!؟

ولكن.... قد نصاب بنوع من خيبة الأمل في أعماقتنا عندما نشعر أننا
قد أمسكنا بحبل النجاة فننتقل فجأة ونتهاوى في بؤرة من الضياع، فلا
نجد غير تلك الهاوية من الشرود التي تفتح لنا ذراعيها وتحضننا بقوة.

نفض يديها عنه بقسوة مهدداً إياها إن لم تستعد للرحيل بأقصى
سرعة فإنه سيضربها!؟

قال لها: المرأة ليس لها غير بيت زوجها وطاعته بكل أوامره بغض النظر
عن تصرفاته.

قتل طفولتها بعنف وكأنها وضعت في صحراء شاسعة قاحلة ليس حولها
أي صوت للحياة؛ فكانت تهيم على وجهها ولا تعلم إلى متى سينتهي هذا
الفضاء...

ركضت نحو والدتها ترجوها... تشخذ عطفها لعلها تستطيع منعهم من أخذها.

توقفت عندما تفاجأت بالدموع الغزيرة وهي تتطلق من عيني والدتها بحرارة وكأنها بركان قد ثار للتوليخج ما بجوفه من الأم مكبوتة منذ سنين؟!.

توقفت... تراجعت للوراء وكأنها قرأت الرسالة المرّة؟

قبّلت أشقاءها وسط ذهولهم، ورحلت مع زوجها ووالدته!.

تلونت الأيام في ناظريها أنواعاً من الكدر، وفي كل مرة تذهب إلى منزل والدها تجده يزجر ويتوعدها إن لم تعد سيقتلها؟!.

صار لمنيرة تسع سنين، كان حصيلتها خمسة أفواه يرقبون ألوان الذل التي تتعرض لها والدتهم من جدتهم وأبيهم.

لم يكن لمنيرة عزاء؛ فقد توفيت والدتها متأثرة بما جرى من أوجاع بعدما راحت في غيبوبة عميقة وكأنها بذلك قد رفضت البقاء في هذا الوضع؟!.

أما والدها فقد تزوج وصار إخوتها يشكون لها حالهم حتى أصيب واحد منهم بالصرع، فكانت تأتيه نوبات لا يفيق منها إلا وإخوته بجانبه يرقبون حالته بذهول.

وذات يوم وبينما كانت تشق طريقها نحو غرفتها تفاجأت به يتهامس مع والدته عن إحدى الفتيات التي رأتها الأم في زفاف البارحة وقد أعجبتها وملكت لب قلبها، أخذت تشجعه لتخطبها له فهو يملك الكثير من المال!.

كانت هذه الكلمات أشبه بالصاعقة التي نزلت على رأسها، وخافت حتى أحست أنها في معتقل تتذوق فيه أصناف العذاب والظلم والاستبداد..

فحتى صبرها عليه وما تلاقيه منه من قهر ومعاملة قاسية نجد أنه بمساعدة والدته سوف يختمه بما هو كفيل بإنهائها.

بكت وهي تتخيل أطفالها كإخوتها الذين زج بهم والدهم إلى من لا تخاف الله، ولا ترجو عفوهِ، فكانت تلك الزوجة الشرسة التي استخدمتهم كخدم حولها تأمرهم وتصرخ في وجوههم فلا يستطيعون الرد فيصمتون، والله وحده أعلم بما في قلوبهم من كمد وحسرة!.

لقد تراءت لها صور أطفالها أمام من لا تصبر عليهم في غضبهم... أفكارهم مبلبلة في لحظات عتاب رفضت قلوبهم الغضة تحمّلها!.

طافت في مخيلتها صورة مرقدها وحدها في مكان ما... هل هو مضيء أم أظلم... بالرغم من أنها لم تقصّر معه في شيء... وبالرغم من أنه استخدمها كآلة صماء إلا أنها كانت تعيش على أمل بأن يتغير وتركد تصرفاته الطائشة وتفوز هي بالجنة التي قالت والدتها بأن الله وعدها بها إن هي صبرت.

ولكن... الآن وقد خارت قواها ستكون في المواجهة مع ثلاثة جلادين: والدته وهو والعروس المرشحة!٥

معنى ذلك أنها لن تعيش مجرد خادمة فقط بل أكثر وأفظع من ذلك...

معنى ذلك أنها يجب أن تتخلص من جميع ما بداخلها من مشاعر
وأحاسيس وحتى شعورها بمن حولها... تاهت خواطرها وهي تشعر
بالخوف منه والخوف على أطفالها من القادم الجديد... في حياتها؟.

obeyikanda.com

عندما...فقدت ذاتي

الورقة الأولى...

كانت قطرات المطر الخفيفة تتقاطر على الزجاج وكأنها قادم غريب
يطرق الباب على وجل!

لم تتم في تلك الليلة؛ فشدة الآلام أبدت شراستها وهي تنهش جسدها
النحيل المتساقط..

حاولت النهوض فلم يزل في بقاياها نبض، تمنيت أن تمرر أنفها عبر
النافذة لتسرق روعة الحياة ورائحة شتائها ولكن..

تحاملت حتى استطاعت الوقوف بهزل، وخطت خطوات نحو مصدر
الصوت حتى استطاعت الوصول..

تذكرت كلمات دائماً ما خطررت في بالها حين قالت لها: تأكدي بأن
الأمل بالله والإحساس بالرضا نصف الشفاء..

فتحت النافذة على مصراعيتها.. فداخلتها رعشة انتفض منها جسدها،
لم يكن غير هواء بارد محمل برائحة أزهار الليمون وقت تساقط المطر..

ملأت رثيتها بهذا العبير، وأغمضت جفنيها مبحرة عبر رحلة خلود
ليس لها مثيل..

أفاقت من سكرتها تلك عندما لامس أطراف فستانها الأزرق إحدى
رجليها من أثر الهواء..

أدارت نظرها نحو الغرفة فوجدت الفخامة تسكنها.. والهدوء.. وكل
ما يخطر على بال إنسان، عادت إلى ردهات منزلها الشامخ وتلمست أثاثه
وموجوداته بمشاعرها.. حتى أعداد الخدم واختلاف جنسياتهم!..
رجعت إلى واقعها المرء.. المرء آه.. المرء ذلك الأخطبوط المتوزع على
أجزاء جسدها المتهالك.

طافت بذاكرتها الهزيلة... أبحرت عبر غيوم الماضي لترى نفسها بين
الأدراج كتلة من الهموم احتلت إحدى الزوايا تحاول الإنصات إلى المتحدثة!
مجرد فتاة وجدت الأناقة طريقاً إلى هيئتها؛ فلبست أجمل ما وجدت
بشرط أن يكون مطابقاً لما يفرضه نظام المدرسة... ابتسمت... عاشت
أجمل ثواني عمرها الحافل بالأحداث..

فكانت عبارة عن شجن متنقل... ترى بعينين، وتشدو بألحان
وقطرات الحبر متناثرة حول الورق تريق عليها كل جرح استطاعت
تحويله إلى معنى...

كان جو المدرسة بالنسبة لها حياة أخرى يتخللها تقلب الزمن بين
أوجاع وسعادة!؟

لم تكن تنقل هيبتها المكانية معها إلى الصف أو بين الزميلات، بل
أصغت إليهن... سعدت بروائعهن...

لحظات ليست بالطويلة ثم عادت إلى واقعها الحالي... بكت وهي تتحسس أوراماً استطاعت البروز قليلاً عن مستوى جسدها... لها آلام شديدة...

ابتلعت ريقها... عثرات الحياة... النفس يتقطع والعظم منهك... ولا وجود لشيء يسمى القوة؟!

خطوات... وسقوط... تهالك... حتى الأرض لم تمتص الأوجاع... أو تبلي الألم...

ثقلت الأجفان واشتد الوهن... أطبقت وتراخي الجسد، فقط عينٌ واحدة استطاعت فتحها بضعف لتكون نافذتها عبر بوابة الحياة... لترى من حضر... من وقف بجانبها لكي يرفها إلى دارها الخالدة الأبدية، تذكرت حين لبست ثوبها الأبيض واكتمل جمالها بدمراً أبهر عيون من حولها.. كيف هي الآن، تذكرت أنها عاشت سنوات بها أخلصت... بها أنجبت... بها اطمأنت...

وأخيراً... أخيراً جاء دورها بعدما أوفت بعهدتها!

كيف هي الأوجه، هل احتقنت العيون وفاضت مدامعها؟!

هل هناك من انبسطت أساريره وداخله الشعور بالرضا... غريبة هي

الدنيا... لا بل نحن الغرباء!

نأتي بصرخة تخرج من حناجرنا...

ونرحل صامتين إلا من آهة... بسيطة تحمل معانٍ كبيرة من الكرب!

فقط تتسرب عبر مسامعنا صرخات أحببنا...

وكأن هناك اتفاقاً بين الولود والخلود؟!

الورقة الثانية...

يعج المنزل بجو من الغربة وافتقاد شيء ما يتحرك... يتنفس... يطلق
أهةً تصدح فضاءاتها عبر الزوايا وفي الأركان...

وفجأة سقط القلم، وسقطت دموع المحبرة على ناصع البياض فحولتها
إلى شاطئٍ نائر ينسف هنا... ويجرّ هناك...

صارت مجرد ذكرى... رائحة شوق أبدي لن يتكرر مرة أخرى.. وخز
مؤلم يغزو جوف ذاكرها...

وعبر طرقات الحياة أرى رسماً... عثرات حضرها الزمن في طريق
الراجلين المسالمين... فكانت ندباً واضحة ينبه السائرين فوقها...

وأتى العيد... أه العيد... ذلك الزائر الغامض؛ نعلن الفرح ونصدح
بنشوته؛ ولكن... إنها النهاية لرحيل زائرٍ أغلى... وربما الوداع!

موجة عارمة من متضاربات تعبت بالكيان فتحولها إلى سلاح نارٍ...
يرشق بطلقات نارية، ربما تكون نهاية المطاف... أو الحل الوحيد للركون
إلى الصمت.

الورقة الثالثة...

كانت تبكي وليدة الحياة، لم يمض على ولادتها دقائق، أهو الرفض
التام...

سلمتها لي الممرضة، لا تزال أثار المخاض تغسل قسماتها الغاضبة
الدقيقة...

التفتُ إلى والدتها.. التقت عينيّ بعيني ممرضتي... أشاحت هي عني...
تحسست نبض والدتها لم أشعر بدفء الحياة.. فقط آهة بسيطة خرجت
جزافاً.. بصعوبة نحو الخارج... سمعتها كأنها قهقهة حزن ساخرة!
سكنت حركتها.. بردت.. شخصت نظراتها صوب الطفلة وتوقفت... إنه
بالخارج... من؟

قالت الممرضة والدها، يريد معرفة جنس الجنين...
أشرت إليها أن تذهب وتخبره... ما زالت الطفلة تبكي.. أهو الخوف؟
قالت الممرضة.. لم يسأل عن والدتها.. لقد رحل!
وضعت الملاءة على وجه غريب للتوانسل من الدنيا... وحضنت
الطفلة.. زاد التصاقني بها حتى سكنت وكأني شعرت بها وقد أرسلت
مركبها وأغمضت عينيها الصغيرتين للمجهول ونامت!
بحثت بين ردهات المستشفى... لم أجده... كأنه ظل قد زال!

الورقة الرابعة...

في جو مليء بالحركة... أصوات قهقهات.. التفتت نحو القادم.. إنها
المراقبة «.....» مازالت ضجرة لها صوت أشبه بالرعد وألفاظ...؟
صرخت بأعلى صوتها وكأنها كانت تكتم هذه الصرخة منذ سنين،
وأطلقتها براحة الآن، ولكن هذه المرة بوجه طفلة لم يتعد عمرها الثانية
عشرة...

ساقها قدرها إلى غرفة المعلمات لإحضار كشكول العلامات بطلب من أستاذتها.

انتفض جسدها فزعاً.. حاولت جاهدة إيضاح سبب خروجها من الصف ولكن...

عاجلتها بتلك الألفاظ النابية، وهي تلعن اليوم التي رأتها وزميلاتها فيه. كجلاد يستحل مكاناً بين الفصول وعبر الممرات.

كان «لرؤى» صراعات ذات شجن، تسكن بين حناياها الغضة، ودائماً ما كانت تلك الصور البشعة تمر من أمام ناظرها وتتغلغل بين أغلى الذكريات، فلم تعد تتحمل فضحت بأغلى الوجوه وأقفلت راحلة....

الورقة الخامسة...

اندفعت نحو غرفتها... ألقى بملازمها جانباً وهوت على السيرير..

كان منظر السقف أكثر من رائع.. فالغرفة سكنت جوانبها ألوان البحر، وتربعت بزواياها رائحة المطر، كان رذاذ من باقة عطرية تحمل بين جنباتها أحلاماً رومانسية، يتخللها بعض من رسم لوجوه راحلة... ووجوه مازالت تتشقق الهواء!

كان منها أن التفتت إلى صوت طائر تتابعت ألحان حنجرته...

نعم، الطائر نفسه الذي يصدر صباحاً في حديقة الكلية...

أطلقت آهة...

لقد رحلت أمنياتي عبر المتاهات، وانطفأت شعلة حماسي وخَفَّتْ طموح
الحياة في كياني، حتى بدأت أسير... فأمرُّ من أمام حداثق الأمل مسرعة
متلاحقة الخطا كأنه الهروب من روعة الحياة...

بعدهما فقدت كل شيء؟!؟

أغلقت النافذة وراحت تتصفح مذكرة مهترئة كانت لسنوات سابقة قد
سكنت فؤادها؛ فلمست من خلالها معنى الانتماء الروحي...

دارت برأسها أفكار وتساءلت: الآن نحن نسير عبر طرقات الحياة؛ نقطف
من هنا.. ونتهل من هناك، وتمضي بنا الأيام ونحن رُحَّل سائرون نبحت.

نبحث عن ماذا؟ عن نجاح..! عن أمنية..! ربما تتحقق!!! ولكن غدًا..

في نهاية المطاف هل نجد الضالة؟

هل نطبق أجفاننا بصمت فترسو أجسادنا على الأرض... الأرض التي
تمتص ثقلنا وننام بنعيم.

أم تكون مجرد غفوات.. غفوات يتخللها ألم مر ثابت لا محالة إلى أن
نتوقف!

خاطرة...

شعرت بصداع شديد يغزو رأسها انزوت... تتحَّت إلى ركن خافت
الإنارة في إحدى الزوايا بعد أن أغلقت الستائر بإحكام، لَفَّتْ نفسها بشال
ناعم غزير، كأنها تغافلهم لتطلب قسطاً من الانزواء بعيداً عن معاركهم
التي لا تنتهي.

أغمضت عينيها وصمتت، كأنها تنتظر هدوء العاصفة وسكون الضجيج..
لتبدأ رحلتها الكفاحية من جديد وسط ضجيج الصغار والكبار..

هي... هي تلك أمي!

obeikandi.com

قلوب يملؤها الكدر..

لم يبقَ على العيد غير ثلاثة أيام، وها هو عمر يقفز نحو والدته ملحاً يطلب منها شراء ما تبقى له من أغراض هو وأخواته.

كانت دموعه غالية جداً على قلب والدته ووالده، فهو الوحيد بين شقيقاته البنات اللاتي كانت فرحتهن به لا تسع الدنيا.

عزموا على الذهاب إلى المدينة لشراء ما يلزمهم، ركبوا فرحين، كل منهم يتخيل ما سيقتنيه، وتسير المركبة ولم يعلم أحدٌ بأن هذا المشوار نهايةٌ لحياة مستقرة وعيش هانئ، وبداية لشقاء يتخلل كل من تبقى، وكتب له أن ينبض قلبه بالحياة!

وزورق الحياة يحملنا لنخوض عباب البحر الشاسع بما يحمله من خفايا ومفاجآت، فمن كتبت له السعادة فهو من يسير عبر أمواج هادئة، تدخل النشوة أعماقه إلى أن تفاجئه لطماتها بين الحين والآخر كقلق يتخلل حياتنا لتتذوق مرّها ونعيش حلوها!

وتضيّق الأسرة بعد أن فقدت ربّانها وحنانها؛ فقد رحل الأب تصحبه زوجته، وكأنهما أيبا أن يفترقا حتى في الرحيل!

كانت منيفة تلتفت بعد أن امت شمل إخوتها، أختان وأخ لم يتعد عمره السابعة، وتقرر الذهاب إلى أعمامها لعلها تجد من يمد لهم يد المساعدة ويرعاهم بحمايته ولكن...!

لقد هالها ما سمعت وهي تهتم بالدخول إلى غرفة الضيافة
وأعمالها مجتمعون...

قد كسر قلبها ما تسرب إلى أذنيها من حديث.. بل من وخز قاس لا
يمكن أن تتساه ووصلت الرسالة..

الكل ليس لديه استعداد لأن يحوي أي فرد منهم؟!

حملت جراحها واستقلت راحلة إلى «خالها» لعله يجبر مصيبتها
وإخوتها، ويرتق الجراح.. ويستقبلهم...؟!

وتمضي الأيام التعسة بشيء من الذل، فقد فرض عليها وشقيقتها أن
تكونا جاهزتين.. لأي خدمة تطلب منهما طائعتين لا مختارتين!

وتبكي «منيفة» وهي ترى ما حل بهم من ذل وإهانة، حتى «عمر» أخوها
الطفل الغالي لزم عليه الذهاب كل صباح باكراً لإحضار أرغفة الخبز
للعائلة، بينما الجميع يغط في نوم عميق وراحة تامة.

راعها ما قرأت في عينيه من فزع وهو يركض نحوها وينغمس بحضنها،
فقد كان يسير ذاهباً كالعادة إلى المخبز ولم يشعر أن خلفه كلباً مسعوراً
بدأ يلاحقه.. فانطلق بأقصى سرعة حتى وصل إلى باب المنزل الذي عمد
إلى عدم إقفاله بعده ودلف محتمياً بأركانه ولو أنه غريب الدار.

عند طلوع شمس ذلك اليوم كان هناك قرار بانتظار الأيتام..

فمنيفة ونورة عليهم الاستعداد؛ زفافهما سيتم الليلة من أبناء خالهم
دون أي معارضة، وكذلك دون أي مقابل!

فقط سيتم إحضار فستانين نظيفين كصداق وقطعة خاتم خاو من أي إضافات جمالية!

لم يكن هذا القرار أرحم مما كانت تعانيه وشقيقتها نورة من قبل، بل كانت مجرد تسوية لابني خالهما ونزوة انتهت بطفل يتربع بين أحشائها ينتظر المجهول بعد زواج لم يستمر أكثر من سبعة أشهر، ورحيل زوجها إلى دولة أوروبية بحجة الدراسة، وإصرار جدتها لأبيها بأخذ عمر وشقيقتها الصغرى إليها بحجة أنهما تزوجتا وأصبحتا غير قادرات على رعايتهما، وإن استغلت ضعفهما لخدمتها فهي جدة وبمثابة الأم!؟

في تلك الأيام الصعبة وصل إلى قلبها سهم مسموم عندما اكتشفت بأن سبب انفصالها من زوجها هي أختها نورة عندما همست إلى زوجها بأنها كانت تتمنى الزواج من شخص آخر كان يسكن في الحارة، إلا أن الأقدار ساقتها إلى أخيك!

فما كان من زوج منيفة إلا أن طلقها بعدما فرح لهذا المخرج الذي ساعده للتخلص منها والسفر حالاً بحجة الدراسة!

همست... هل تكون شقيقتي سبب ضياعي وطفلي!؟... هل يوجد في العالم من يعيش بهذه السذاجة وقلة الوعي!؟

شقيقتي طيبة حبيبة ولكنها لا تعي ما تقول، توالى الأسئلة عليها وكأنها في محاكمة مع ذاتها المتلاطم.

بلعت «منيفة» جروحها وهي تصارع آلام المخاض، فترأت لها والدتها الحبيبة وهي تمسح على جبينها وتتمتم باسم الله عليها، فشهقت تلاها

شهقة أخرى تجاوزت الثالثة مع صرخة الحياة، فقد خرجت نفس بريئة
للدنيا الشاسعة لترحل الأخرى إلى بارئها وخالقها، وكأنها أصرت أن تترك
قطعةً منها... تحمل الملامح نفسها بل وتنادى باسمها... «منيفة»!!!

obeykandil.com

ليس إلا...

رحلت.. ورحلت معها ذكرياتها وصبرها بل.. وآمالها حتى صراخها
علينا وقت الشجار.. حتى صمتها وقت غضب أبي.

لم تكن تعرف كم بقي لها من أيام بيننا.. فاجأنا القدر فبكيننا.
وفتحنا أعيننا يوماً لتأتينا أخبار وهمسات.. والدي؟

نعم والدي ينوي الارتباط بأخرى.

كانت عمتي تلح عليه منذ رحيلها.

سبحان الله!

ترأت لي الحياة وكأننا بها مجرد آلات!... تستبدل بأخرى جديدة بعد
أن تنتهي مدة صلاحيتها.

صرت بعد هذا الحدث أنظر للأسرة بعين الحذر والإحساس بالوحدة
والخوف منها وعليها.

كان رنين الهاتف لا يتوقف، قادني فضولي لأرفع سماعته هذه المرة،
فقد كنت عكس إخوتي لا أحب التحدث من خلاله.

فاجأني صوت سيدة أجش يُسلم ثم يلقي عليّ أسئلة كثيرة من ضمنها
كم عدد الموجودين بالمنزل وما هي أعمارهم!

أصبت بإحساس محبط... محطم كمن استيقظ فجأة على أصوات صراخ.. ولكنها في الداخل.. سكنت جوانب روحي واحتلت زوايا القلب بعد أن أحدثت بجدرانها شروخاً كثيرة...!

كيف صارت حالنا... وكأننا في مزاد...

تلاشى الدفء... الاستقرار... الذي لم نعرف قيمته حتى فقدناه.

تساءلت: لماذا تريد معرفة أعمار إخوتي وعددهم...

جاءني صوتها حادٌ جريء، من حقها السؤال عن كل شيء في المنزل، ويجب عليكم احترامها؛ فهي ستكون بمثابة والدتكم.

والدتك؟! صعب السؤال، لقد دار في مخيلتي عندما قالت والدتي.

التفتُ فالتقت عيناها بحدقات «عبودي» البأس وهو يحتضن «جلال»* ويخطو ثم يتعثر ويسقط، كانت تصلي به دائماً... ورحلت...

لم تأخذ معها غير رائحتها.. وصلاتها...

قال أبي: هناك «عمال» سيجرون بعض التعديلات بالمنزل..

احملي إخوتك واذهبي لجذتك...؟!

صعب السؤال دار في رأسي الفائر...

وسمعت التعجب الأخرس يصرخ: «بعض التعديلات»...؟!، بل غرفتها

الباردة ليس إلا؟!

رجعنا إلى منزلنا بعد أيام؛ فكانت له معالم جديدة تختلف تماماً عما

كان، تذكرت..

* «جلال: هو ما ترتديه المرأة عند الصلاة».

كان لها أمنية بسيطة لم يستطع تحقيقها إلا...

إلا عندما رحلت.. ليس لها بالطبع!!!

دارت الأيام.. دخلت حياتنا..

هي ابنة إحدى القبائل.. تربت على أشياء وقوانين من ضمنها احترام الزوج ورعاية أولاده، حتى وإن كان يكبرها سنأ.. حتى وإن اقتحمت مشاعر صغارها... المهم أن يكبروا.. المهم أن يصبحون رجالاً ونساء، لم تحو مشاعرها كرهاً.. ولم يكن حباً، هي حياة.. وأسرة فقط!!!
اتصفت مشاعرها بالبرود.

كانت طويلة.. عريضة نوعاً ما.. لها نظرة ثاقبة.. ورائحة عطرها صارخة نفاذة كأنما تقرض وجودها رغماً عنا..

اقتربت مني ذات يوم.. رمقتني بنظرة تفحص وقالت:

لماذا تطيلين النظر بالأرض!؟...

التفت إليها... بل انتقلت حواسي فقط إلى مصدر صوتها، بينما روحي.. وإحساسي كانت في مكان آخر بعيدٍ عن الواقع المرير في حياتي الصامتة.

ذات يوم شعرت بأناملها تقترب من خصلات شعري فتصففها.. ثارت نفسي عندما تجرأت واقتحمت عالمي الخاص..

بكيته.. وكأنني طفل تائه امتزجت أحاسيس الغربة بمشاعر الحزن في أعماقه، فانطلقت آهاته عبر البكاء.

عاشت معنا... رأيتها عدة مرات تحمل «عبودي» بين أحضانها
وتهدده... ولكنه يتململ كل لحظة كأنما يفتقد شيئاً حتى يدخل في
غيبوبة النوم.

مضت أيامنا متلاحقة..

وكبرنا.. وتفتحت أزهارنا.. بالرغم من الجفاف.. بالرغم من الصقيع!
بالطبع ليس المهم أن يبرز جمالها تحت الشمس.. يكفي أن تظلنا أسقف
السماء الشاسعة بكل تقلباتها حتى.. حتى وإن كانت ملبدة بالغيوم..!!

مساحات الألم ...

وجد نفسه فجأة وراء القضبان...

كانت نزعة الرفض التام لهذه الصدمة عنيفة فصرخ بأعلى صوته..

أنا بريء.. أنا بريء؟

اقترب السجنان منه.. ألصق رأسه الفائز بالقضبان، تغسل قسماته

الدموع الحارة والعرق، أخذ يقسم له أنه لم يرتكب ذنباً ولكن..!!

رمقه السجنان بنظرة حادة واكتفى بقوله: إن كنت بريئاً فأدعو الله أن

ينصرك، وإن كنت مذنباً فأدعوه أن يغفر لك وانصرف!

تعاقبت الأيام على السجين وهو يكاد يجن مما هو فيه، واسترجع أصل

القضية... كان يوماً مختلفاً عن باقي الأيام...

دخلت على والدي أحمل تكليفاً بالسفر إلى إحدى الدول الأوروبية

لاستلام وظيفتي الدبلوماسية، وكنت أطيّر فرحاً من صفقة الحظ التي

آلت لصالحني، فكم من شاب حديث تخرج يحمل (الماجستير) يحلم ولو

مجرد حلم بهذا المنصب، ولكنها إرادة الله وتوفيقه ودعاء والدي لي

بالتوفيق، بخلاف أخي المشاكس، فمنذ أن وعيت على الدنيا أعرفه عاصياً

الأوامر، مسبباً الفتن والمقالب، كان الفضل الذريع نهايته، فاكتفى بوظيفة

بسيطة جداً بالكاد يصرف بها أموره.

كانت فرحة والدي بهذا الخبر السار مدعاة لأن يعرض علي فكرة

الزواج من بنت بلدي بأخلاقها ودينها وحشمتها المغلفة بالجمال البكر

الأصيل دون رتوش أو ترميم.

ووقع الاختيار.. «لدال» ابنة صديقه في العمل، الكل يثنى عليه وعلى أولاده
وتربيتهم، لم أتردد لحظة واحدة، وعزمت على مصاحبة والدي لخطبتها.
لكن يبدو أن السعادة لا تكتمل، فقد اشترطت والدتها المتعجرفة عليّ مبلغاً
باهظاً بالإضافة إلى حفل الزفاف الذي حددت مكانه في أرقى المحافل!
أذعنت للأمر خاصة بعد رؤيتي الشرعية لدلال، فكانت أجمل مما
تخيلته من أوصاف مغلقة بنظرة حياء زادت من جمالها الأخاذ!

حُد موعِد الملكة التي تسبق الزواج وبذلت من خلالها المستحيل
لإرضاء والدة زوجتي التي بدأ زوجها بالتضجر من طلباتها مني ورفض
هذا المبدأ، إلا أنها أقسمت أن تجعل زواج ابنتها أسطورةً يتحدث عنها
الناس لمدة طويلة..

كانت بعد القران تحدثني وأحدثها، وأبث لها همي فأجدها تقف
موقف العاجز الذي لا يرضى بهذا كله، ولكنها لا تستطيع عمل شيء،
وبدأ اليأس يتسرب إلى نفسها.. وبدأ الوقت يضيع مني ويقترب موعد
سفري للعمل؟!!

كانت تلك الليلة الحاملة التي لا يمكن أن أنساها، حيث هاتفتها في
الواحدة ليلاً؛ فوجدتها تسامر همومها محاولةً إيجاد الحل..؟

فخطرت برأسي فكرة ربما اتخذت نوعاً من الجراءة والضرب بكل
الارتباطات بعرض الحائط! همست لها أن تحزم حقائبها وتخبر جدتها
ولنرحل وليكن ما يكون.

دخلت دلال على جدتها وهمست له سرّاً بما دار بيننا، وكانت جدتها «تصلي»؛ فهذه العبادة الجلييلة التي لم تفارقها منذ فتحت دلال عينيها على الدنيا، كانت تقول لي ذلك، وأن جدتها تقول: فلنعط لآخرتنا كما أنعم الله علينا في دنيانا، فلا ينفع العبد الصالح غير أعماله.

فرحت الجدة بهذا القرار وساعدتها على حزم حقائبها وودعتها عند الباب بدعوات حارة تسبقها الدموع، وقد كنت في الخارج بعد أن أكدت الحجز السريع عن طريق أحد أصدقائي في المطار، حملت حقائبها التي دفعت بها الخادمة الأمانة إلى الخارج ووضعتها في السيارة بهدوء وركبت، وانطلقنا يتخبطنا الخوف والإحساس بالخطأ لهذا التصرف الذي لا بد منه بعد مضي أشهر بين موافقة على الحفل وبين رفض من قبل والدتها القوية!

نزلنا في المطار نترقب كمن اقتترف جُنحةً ويتوقع إلقاء القبض عليه مع أنها أصبحت زوجتي بعد عقد قراننا على سنة الله ورسوله، إلا أننا أسيري العادات التي تكون في معظم الأحيان حائلاً أمامنا وما أمرنا به ديننا، فلا داعي لكل البهارج التي ابتدعتها والدتها وأصرت عليها.

التقت نظراتنا بهلع عندما تناهى إلى أسماعنا موعد إقلاع رحلتنا وتنفسنا الصعداء والطائرة تحلق عبر الفضاء بعيداً عن أي أحكام أو فروض لا يقرها الشرع! وكان لدعاء السفر الكثير في بث الطمأنينة في نفوسنا القلقة، وكأنما تسرب الدفء إلى أعماقتنا واسترخت أعصابنا المشدودة..

كانت رحلة يتخللها الإرهاق الممزوج بالقلق الذي ارتسم على وجه دلال وهي تتخيل والدتها بل ووالدها الذي لا تعلم ما هو رأيه بهذا التصرف المتسرع..

ولكن... عندما حطت الطائرة رحالها في (ملبورن) كنا أمام الأمر الواقع، وعند خروجنا للفضاء.. شهقت دلال؛ فالجو يغلفه الضباب ولا أثر للشمس مع رشيقات خفيفة تغسل رؤوسنا!؟

عشنا أيامنا بسعادة لا متناهية، إلا أنها في بعض الأحيان كان يسرقها الموقف فتسافر إلى هناك خاصة بعدما رفضت والدتها الرد على مكالماتها، وأغلقت سماعة الهاتف بغضب؛ مع أن موقف والدها خلال المحادثة وطلبه منها أن تعيش حياتها دون منغصات.. إذ إنها لم ترتكب ذنباً؛ أدخل الاطمئنان على قلبها، إلا أن والدتها دائماً تكون عالماً من الهم والإحساس بالذنب!

انتهت مدة تكليفي في تلك الدولة وقد شهدت أحلى أيام حياتي وأنا أتقلب طوال تلك السنوات في بحر من العسل، أخرج صباحاً بكل جد ونشاط بعد أن أقبل أطفالي الثلاثة وهم يغادرون ووالدتهم إلى معهد بالقرب منا يتلقون تعاليم الدين الإسلامي ومبادئ اللغة، وفي المساء أغادر عملي إلى منزلي الدافئ فأدلف من بابه عبر دهاليز السعادة والأمل؛ فيفاجئني وجهها المشرق البشوش، وأنظر إلى جمالها الأصيل الذي لم يطلع عليه أحد غيري أنا؛ فتستقبلني وقد أعدت المائدة وعليها ما أعشقه من وجبات منذ صغري فأنعدي وأرتاح قليلاً، ومن ثم أصطحب عائلتي الصغيرة في نزهة فتنتقل نظراتنا عبر المروج الخضراء الواسعة، ويبهرنا ما نراه من

بعض الطيور الغريبة الملونة، فتحمد الله كثيراً ونحن نرى زهورنا تلهو
أمامنا بسعادة كبيرة..

أتممت بقية أوراق مغادرتي وسط أسف زملائي الأعمى الذين تمنوا
تمديد مدة عملي بجانبهم، إلا أن مرض والدي كان السبب الأول لسحب
أوراقى والعودة فوراً.

حططت رحالي على أرض الوطن الغالي، تنفت رائحة عطره العبقرة،
وأبهجت ناظري حيات التمر.. المتدلية من النخيل، وصرت أشير إلى كل
شيء يمر من أمامي من خلال نافذة السيارة وهي تسير وأشرح تفصيلاً
ما هي وما أهميتها للبلد وأطفالي يصغون، بالرغم من صغر سنهم، إلا
أنهم بدؤوا يطرحون الأسئلة الذكية..

ووصلت سيارتنا إلى منزل والديها؛ فنزلت «دلال» بقوة نحو الداخل
واحتضنت والدتها بشدة إلا أنها لم تجد الشعور المتبادل بمثله، تلفتت
باحثة عن والدها شمعة الدار ولكن..

لم يكن له أثر.. فقط ذلك المذياع القديم الذي كان يحتفظ به ويحرص
على صيانتة وتلميعه.. كان يعمل.. يبت أخباراً عن وفاة أحد الأشخاص
الخيرين ويعدد مناقبه وأعماله الطيبة!..

شعرت بوخز يغزو قلبها؛ فالتفتت إلى والدتها التي أجهشت ببكاء وهي
تخبرها برحيله قبل مدة.

لم تع دلال بعد هذا الخبر شيئاً، فقد تراخى جسدها وغابت عن الوعي
وسط صراخ أطفالها المرعوب مما حل بوالدتهم!

حملت إلى المستشفى ومكثت عدة أيام إلى أن بدأت تستردُّ صحتها،
وخرجت إلى منزلها وهي تشعر بالحسرة لعدم رؤيتها إياه قبل رحيله..

وهو من تمنى رؤية أطفالها؛ فقد كان واحداً منهم يحمل اسمه بشموخ،
مضت أيامها وكأن الهدوء بدأ يرجع إلى نفسها راضية بالمكتوب.

رن جرس الهاتف؛ كان لأحد العمال المخلصين الذي يطلب من والدتها
حلاً للشركة التي كانت تنهب بشكل مستمر من قبل الموظفين..

التفتت إلى زوج ابنتها وأعطته سماعة الهاتف وطلبت منه مباشرة
العمل، حادث العامل وأخذ منه عنوان الشركة وذهب إلى هناك..

ففوجئ بالاختلاسات التي تمت خلال تلك المدة بطريقة ذكية لا يفهمها
غير إنسان متخصص بذلك..

حاول حصر الخسائر ووضع يده على المتسبب الذي حاول الإفلات منه
بطريقة أو بأخرى، إلا أن «فيصل» أثبت عليه ذلك.

كان المحاسب يضمر بنفسه نحو «فيصل» شراً، فعمد إلى إرسال أحد
زملائه للعمل بدلاً منه بعد إعلان عن طلب محاسب أمين، ولم يكن يعلم
«فيصل» وهو يوقع عقد العمل مع المحاسب الجديد بأن له علاقة بالمختلس
الأول وأنه مرسل من طريقه للإيقاع به..

في ذلك اليوم الكئيب اندلع حريق هائل في الشركة فخطف ذلك
المحاسب أختامها وزور أوراقاً تدين «فيصل» بتاريخ قديم، ورفع سماعة
الهاتف مبلغاً عن ذلك؟! وما هي إلا لحظات وتم القبض على «فيصل»
الذي أدهشه هذا الاتهام؟

حاول إثبات الحقيقة وإظهار الحق ولكن أمام الضابط أعمالاً مشبوهة
ذُلت بختم الشركة مع توقيعه المزور من قبل المحاسب المتمكن، فزج به
بالسجن وهو يصرخ بأعلى صوته أنه بريء..

هناك صراعات مريرة كأنها بركان ثائر سكنت أعماقه فانزوى بعيداً
عن العالم..

ومع كل إحساسه المشبع بالظلم اللحظات الرومانسية الحلوة استطاعت
خطفه إلى عالمها المليء بالأحلام السعيدة فكانت سلوته.

obeikandi.com

أنا... ومن بعدي الطوفان...

هَيَا.. يا فرحة العمر البكري.. يا شمعة أضاءت فضاء وحشتي بعد
طول انتظار..

لن أدعو عليك.. لن أجعل حرارة فؤادي وحرقة قلبي تذيب جليد
التماسك بين جوانحي..

أتمنى لك حظاً أوفر من حظي.. حياة واعية وأمان تتحقق، وأن تمضي
أيامك بجانب من اخترت هنية سعيدة!!!..

في الجانب الآخر من الحياة.. هناك ظل يجثو على ركبتيه، ووجه
مطموس بكفي الخذلان، ودموع تتسابق تعلن حقيقة لخديعة أمام صخر
شامخ ونفس أبية...

كانت ككل الفتيات.. شقت طريقها حتى وصلت، وها هي تدلف عبر
بوابة الجامعة يحذوها الأمل في النجاح..

إلا أن تلك القسمات لفتت انتباهها.. شدتها.. فكادت تسقط، وشعرت
كمن يهفو قلبها نحو الأرض..

لقد تعلقت بها فتابعتها وسألت عنها حتى عرفت من هي وبأي مستوى..
كان تعلقها بتلك الزميلة شيء يفوق الخيال؟! أحببتها لدرجة العشق..

حتى زميلاتها لم يتخيلن وجودها دون تلك الزميلة.. صارتا حديث
القاعة.. فكأنهما روحان في جسد واحد..

مرضت هيا في تلك الأيام فكانت والدتها كالطائر الحائر تتردد بالدواء
والماء تحاول تخفيف آلامها بأي شكل من الأشكال حتى وإن أخذت آلامها؛
فهي قطعة منها..

إلا أن هيا كانت تتخيل «عينا سارة» بين الفينة والأخرى، فكلما أفاقت
من نوبتها تخايل لها دخول أشعة رقيقة تحمل عبير لرائحة عطرها ويتمثل
أمامها رسمها الذي افتتنت به..

تبحر عبر شاطئ عينيها.. في حالة من الوجد، ولا تعلم هل هي هفوة
الروح للروح وتعلق النظر بشاطئ الأسرار الذي تكسوه الرموش وكأنها
مظلة السماء الشاسعة، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!.

هل هو الفقد للأمان.. للحنان... هي جملة من المشاعر المتضاربة..

هل هو الحب في الله؟؟...

الحب في الله شيء جميل، والأرواح نقية ظاهرة تتحد في الأفق لتنتشر
الخير وتبذل التضحية بثبات وقوة وإخاء...

ولكن... مضت أيامها متردية حتى انشق ثغر الصباح ذات يوم ففتحت
عينيها الملأى بصور سارة وروحها فلا تسمع غير صوتها ولا ترى غيرها..

كانت هناك طرققات خفيفة على الباب بعد أن ذهب الجميع إلى
مدارسهم.. توجهت والدتها وفتحت فدلقت من الباب فتاة علمت منها
بأنها «سارة» زميلة هيا..

رحبت بها وأدخلتها على ابنتها التي ما إن شاهدتها حتى شهقت..
ثم شهقت فغابت عن وعيها لثوانٍ ثم أفاقت فكانت تتهلل بالبشر ودبت

الصحة في محياها، فرحبت بسارة أحسن ترحيب، وكانت عبارات العتب
تمتزج بالسعادة لرؤيتها...

شفيت «هيا» من مرضها تماماً وعادت إلى جامعتها؛ فكان والدها قد
تكفل بإيصالها بعد أن جهدت والدتها لتحويل دوامها إلى المسائي حتى لا
تكون حجر عثرة بطريق ابنتها وتأخيرها عن موعد محاضراتها...
مضت الأيام وهيا تزدد إشراقاً بل وحباً وتعلقاً بزميلتها «سارة»؛
فتمنت أن يجمعهما بيت واحد..

وكان ذات يوم.. أن ترجلت من السيارة في الوقت نفسه الذي وصلت
به سارة للجامعة فالتقتا عند البوابة، وسارة تلتفت وراءها تسألها: من
أحضرك إلى هنا؟.. إنه في منتهى الأناقة هل هو أخيك أم والدك؟..

لم تتأخر نزعة الأناقة وشرارة الجحود في ذات هيا وبادرت
بقولها: إنه أبي وهو من خيرة الخلق، وهو إنسان عصري.. قد تزوج أُمي
وهو في سن صغيرة، واسترسلت بذكر محاسنه وصفاته الجميلة مما
جعل سارة مندهشة..

فكرت هيا ووجدت الحل في أن تضمن قرب سارة بجانبها..
إنه أبي، سأصف له زميلتي وأحاول تسهيل مهمة الارتباط فيما بينهما...
وبدأت بسرده صفات زميلتها وجمالها وختمتها بإعجابها بك؟..
كان مستغرقاً مشدود التفكير بالقيادة، إلا أن كلمة ابنته قد أفاقته،
فالتفت إليها يسألها عن سبب كلامها هذا!!

وقاطعته بقولها أنت لن تفعل جرماً حين تفكر بالارتباط بها، وهي لن تمنع، أما بالنسبة لوالدتي فلن نخبرها الآن!.

توالت الأيام وهيا تشعل فتيل الحماس في قلب أبيها لخوض هذه التجربة الفاشلة ولم تفكر إلا بنفسها فقط..

أما والدتها.. أما ذلك الحزن الدافئ والنفس الرقيقة لم تأخذ من وقتها كثيراً، فقد سلمت بالأمر الذي قالت بأنه لا مناص منه..

والافتتان في هذه الدنيا الفانية يجعل المستحيل ميسراً واللامعقول ممكناً!..
وللأسف.. ألغيت مشاعر وطعنت قلوب حتى تلاشى كل نبض يوجد به قطرة انتماء..

تم كل شيء بصمت وهي تنتظر عودة والدها من شهر أوهم زوجته بأنه فرض عليه، ولم تعلم وهي تلمم أغراضه الشخصية وتهيئ له كل ما يحتاجه.. إلا أن في قلبها وخزاً شديداً الحرارة وكأنه نصل سيف انسل للتو من غمده!!

كيف لنا!..

أ تكون لحظات السعادة هي هبة الشقاء في أعمارنا المجروحة؟.

انقضى ذلك الشهر وهي تأكل أعصابها وكأنها ترميها في الهاشم، وترها وهي تدور حولها تصفق بيديها الحنونة في حذر من مفاجآت الزمن!.

لم تتخيل لحظة واحدة أن تكون الطعنة السامة.. القاتلة من قطعة كبدها التي جاهدت كي ترزق بها.. ضحكت بتهكم..

للمت بقايا ملابسها التي لم تعد تعنيها فمعظمها كانت باختياره هو...
وارتداءها كان يعجبه هو.. وكانت سعيدة بذلك.. بل كانت تنظر
إليه كما ينظر الإنسان إلى سماء صافية في لحظة أرق أو كربة وهو
يتمتم بالدعاء..
إلا أنها لم تتوقع أن يكون خلف صفحة هذا النقاء كتل من الغيوم
المشعبة بالمؤامرة..
رحلت غير عابئة بأي شيء.. بأي شيء..
حتى «هيا».. هيا، حبة قلبها قد لفظتها بجانب من اختارت وهي مطمئنة..
صارت ساكنة.. هادئة كأنما تصفي إلى الحرب الضروس بداخلها..
تبتسم للوجود.. مراعاة لمن حولها فقط، وهي تعيش عالمها الحقيقي
بسرية تامة.. لن تسمح لأي مخلوق مشاركتها إياه..
أما هيا فقد جنت ثمرة خطئها واندفاعها، وكان أولها تركها
للجامعة مرغمة من أبيها بأمر من زميلتها وزوجة أبيها التي انقلب
حبها عداوة ضارية..
دارت برأس هيا لحظات والدتها وبذلها وسخائها دون محاسبة...
رجعت إلى نفسها فكرهتها وخاضت بأعماقها مصاعب عديدة مصررة
على تعذيب ذاتها كارهة لروحها الجاحدة...
وبكت حتى أخذ منها البكاء مأخذاً فنامت مكدورة..

وما زالت «هيا» تعمل خادمة لدى من أحببتها وضحت بوالدتها لأجلها، بعد تنازلها عن قرارها سمحت لها أن تعود إلى الجامعة، وكانت تتعب في التوفيق بين دراستها الصعبة وبين أعمال المنزل، وزميلاتهن في دهشة من النفور بعدما كان محبة، ولم يتوقعن للحظة واحدة أن ترتكب هيا جريمة شنيعة في حق نفسها وفي حق والدتها حين طعننها بخنجر مسموم من خلفها..

وهي في أمان الله!!!

ذكريات لن تعود ..

كان بهو المنزل يعج بالداخلين والخارجين في حركة تتم عن فرحة
وسرور ونعم..

فاليوم هوزفاف «هيلة» الفتاة اليتيمة على أحد الأشخاص المكافحين،
الحدث الذي أدخل البهجة في نفوس الطيبين.. الذين تمنوا لهما حياة
تملؤها السعادة والاستقرار..

يتم الزفاف عبر بوابة الأمل لعل الأيام تبتسم لها بعد إديار، ولعل
قطرات من المطر تهطل فتزهر أرض حديقته بعد إجداب..
وتمضي الشهور، تليها سنوات ولا توجد هناك بارقة أمل في ثمرة تروي
عطش والدته المشفقة المنتظرة..

كانت الزيارة للطبيب هي القبلة الموقوتة التي انفجرت في قلبها؛
فحطمت زوايا رطبة تغذيها معاملته وحبه ولطفه معها عندما أصرت
والدته على تزويجه بأخرى وبأسرع ما يمكن حتى ترى أحفادها قبل أن
تموت!.

دخل عليها ذات ليلة يخبرها بما تقرر...

يحكي لها أخباراً عرفتها قبله، وتسربت إلى مسامعها فعاتت بمشاعرها
لترسم لها لوحة درامية لديار خربة قد شكلت منازلها ريشة الحرب
القاسية، وغلبت على ألوانها الخطوط الحمراء القانية..

قال لها: أنت حبي الأول والأخير.. أنت مالكة قلبي ووجداني، ولكنها
 رغبة إنسانة تولت تربيتي بعد أن خرجت أحبو على الأرض بلا أب أو إخوة،
 وقد وهبت سنوات عمرها الجميلة الغضة لي وحدي.. سارت بي إلى الأمام
 تحمّلني فوق صدرها بيد وتعمل باليد الأخرى حتى غدوت رجلاً، فحط
 الزمن بها دون شباب أو قوة؛ وهذا أقل ما أفعله من أجلها.. أحنّت رأسها
 إجلالاً لكلامه الكبير فنزلت قطرات دموع حتى باتت تهطل...

وهي ترجوه بالأ يقسو عليها... بالأ يهملها أو يجرحها..

فما أصابها من حرمان هو بإرادة الله..

قالت له.. فتحت عيني على الحرمان عندما توي في والدي، وتزوجت
 والدي بعده فكان زوجها بمثابة الجلاد القاسي؛ فهو يتلقط أي هفوة تصدر
 من طفلة لم تكمل عامها السابع لينهال عليّ بعقاله بحجة تأديبي..

مما أفقدني شخصيتي وهربت ثقتي بنفسي فبدت كورقة قد جف
 نصفها فوق غصن ميت تخاف السقوط..

كنت كثيرة التردد.. سريعة الخوف.. حتى لاحظت جدتي ذلك فأصرت
 على أخذي لديها وتربيتي..

فكان كل شيء في عالمي ممنوع؛ فالبنت لا تخرج أبداً وتكتفي بجد معين
 من التعليم حفاظاً عليها..

وأهم بند في حياتها إجادة الأعمال المنزلية، حتى ظهرت في حياتي فجأة،
 فكنت الفارس الذي انتشلني من براثن الأوجاع، وفتحت لي الآفاق، فأكملت
 الأهم من تعليمي وأنا أتمنى لك كل خير وأدعو الله أن يديمك بجانبني.

وما إن استقرت أوجاعي وقررت دفنها، حتى استيقظ الجرح وصحوت
اليوم لأصطدم بذلك الجدار الخراساني...

جدار الحرمان، فأرجوك لا تتخلى عني...

فأوجاعي باتت رطبة ندية أنعشتها الأحداث من جديد؟.

مسح على رأسها وهو يعدها... وهو يعدها...

في ذلك الصباح أفاقت... بل انتفضت من صمتها فلم تكن نائمة...
كان لغرفتها زاوية خافتة الإضاءة، انعزلت بجانبها وقد رمت برأسها
الصغير على ركبتيها ترقب الزمن وما ينبجج به صباحها..

لليوم الثالث على التوالي... كان هذا وضعها حتى تسربت خطوط
دقيقة جداً عبر ناصع البياض في عينيها المرتوية.. فشكلت شاطئاً نائراً
تتلبد فيه الشباك، وكل واحد من أصحابها يحاول نيل أكبر عدد ممكن
من الأسماك...!

نزلت إلى مقدمة الدار، وعملت القهوة ووضعت أحسن أنواع التمر
والحلوى وقدمتها لوالدته وهي تجاهد لحظات الفزع مما سيحدث بعد
قليل من دخوله وهي معه..

كانت وجلة... قلقة... قلق يشوبه إرهاق... وألم... وعزوف عن كل
شيء... كأنها نقش... أو خربشة أو حتى ترنيمات ناعمة تسمعها على
الباب... فزعت...

انتصبت واقفة كأنها نخلة...

وبعزم حاولت اصطناعه توجهت نحو الباب.. فتحت بسرعة!
هل هو الشوق له... هل هي الرغبة في رؤية التي اختارها أمأ لولده...
ووجهاً لوجه.. رأته أولاً فكانت عيناه تحمل همأ... وشوقاً... وشفقةً
عليها. اتجهت نحوها... رأتها، لها نظرات تعالٍ... وازدراء!
رحبت ودخل الجميع، وأدارت القهوة عليه وعليها وعلى والدته، والكل
مبتسم وهي تحترق... تنتهي... تبكي لآخر لحظة ولكن... بالداخل فقط...
توالت الأيام والأشهر والكل مترقب حتى تحقق المنتظر.. «هند» حامل..
وبدأ شديد العذاب في عالمها المتلاطم؛ فكان عليها خدمتها... ورعايتها
والحرص على عدم حركتها كثيراً... حتى يرضى هو عنها...
حتى يبتسم لها ويدعو لها هي...
اكتمل نصاب الحمل ووضعت... وضعت طفلاً جميلاً تهفو نفسها
لرؤيته أو ضمه..
ولكن.. لم تكن تتصور أن تحرم حتى من رؤيته خوفاً عليه..
تساءلت.. هل يمكن أن تسبب بأذاه، بل بالعكس، أتمنى أن أضمه
وأعتني به وأخدمها برعايته..
ذات يوم كانت والدته في الخارج لزيارة والدتها بالمستشفى وقد
اصطحبها أخواها وتركها الطفل عند جدته.. كان يلهو.. يناغي.. ينظر إلى
السقف وكأنه يسبح..
كانت هي في الخارج لشراء بعض اللوازم..

عادت قبل عودتها وقد كانت والدة زوجها تصلي والطفل لوحده بجانب
القهوة والتمر ورائحة الهيل والطفولة...

أقبلت.. فانشرح قلبها وضمته على صدرها وقبلته وقبلت أنامله
الصغيرة وهي تذكرا سم الله عليه أن يحفظه لوالديه..

دخلت والدته وأخوها، فصرخت بأعلى صوتها وهي تولول حتى انقلب
ضحك الطفل إلى بكاء، ووسط دهشة أخيها صرخت بها.. اتركي طفلي
اتركي طفلي.. وجذبتة من بين ذراعيها.. حتى توارت إلى الداخل..

بعيداً عن لحظات الحرج والشعور بالدونية واللاشيء أمام إنسان
غريب عنها..

تلبسته نظرات السخط على أخته القاسية، فعنفها وحذرهما من مغبة
تصرفها هذا وخرج غاضباً منها!

حضر زوجها وهي تنتظر تصرفه هو... بعد تأنيب والدته لها وكأنها قد
ارتكبت جريمة شنعاء...

وحضر.. كانت ترقبه بعين غريقة وكبد جريحة... كانت تنتظر
قراره.. فإما أن تسير الحياة بهدوء... بحفظه لحقها وصيانة كرامتها
التي ابتذلت كثيراً وإما... وإما؟

نظر إليها غاضباً وهو يقول: ليس من حقك مضايقتها والاعتداء على
حق من حقوقها و...

وقبل أن يكمل فاضت مدامعها فانطلقت الدموع مجازفة وهي لا تقوى
على مخاطبته، تذكرت حين قالت له: أخشى أن ينقسم قلبي لجزأين

فأرفض الجزء الأكبر منه الذي يضمك بعد أن ينهكني التعب وتتعلل أنفاسي بهجرانك وجحودك..

وها هي تمر بما أخافها.. ها هي اليوم وفي هذه اللحظة بالذات تضج مشاعرها الملتاعة ويبكي قلبها الحزين للفقد؟

في فجر اليوم التالي للممت أشياءها البسيطة، ولم تتس كينونتها المفقودة؛ فقد جاهدت لربطها وسط إحدى الحقائق حتى لا تضيع منها أكثر فتبيت خرساء وتصحو خرساء؟!

وقفت كأنها شرع منسي وسط بحر مهجور منذ زمن، تحمل أمتعتها وتزج بها في مؤخرة السيارة ولا تعلم أين تذهب، فليس هناك غير جدتها وخالها وأولاده...

انفصلت.. انقطع الوصال.. خانها الفارس حين جذبها فتعثر وسقطت.. وسقطت وهذه المرة كانت فوق الرمضاء القاتلة؟.

عادت إلى المعمة من جديد وهي تحيي ليلها باللجوء إلى خالقها وهي تتذكر قول صديقتها لها: التجئي إلى الله.. التقى خالقك فهو ينزل إلى السماء الدنيا في أواخر الليل ويقول: (هل من داع أستجيب له؟ هل من مستغفر أغفر له؟ هل من تائب أتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر)..

واستجاب.. سبحانه وتعالى.. استجاب حين علمت صديقتها بما آلت إليه.. كانت تتصفح إحدى الجرائد.. يوجد إعلان صغير في حجمه كبير في معناه..

مطلوب حاضنات لأطفال أيتام، يوفر لكل أم سكناً بحراسة مشددة، يشترط الأمانة والرحمة والنظافة، وتتمتع كل أم براتب شهري ودورة

علمية.. وهي مسؤولة عن ثلاثة أطفال ابتداءً من السنة الرابعة ونهاية
 بطفل صغير بالأشهر.. قفزت.. نحو الهاتفف.. أدارت القرص فاجأها
 صوت.. طلبتها.. حدثتها وكأنها تأكل الكلمات محاولة إيصال الخبر
 بأسرع ما يمكن..

انفجرت أساريرها.. بكت ودموعها تتساقط..

قالت لزوجة خالها الخبر.. ولخالها.. وافق بعد أن تأكد من مأمّن
 السكن.. بعد أن تأكد من سمورساتها العظيمة..

عاشت حياتها الجميلة فأشرقّت الدنيا بعينيها وهي تودع أطفالها..

رقية.. وفاطمة.. وأحمد.. صباحاً إلى الحافلة للذهاب إلى مدارسهم..
 وتعود أدراجها لتهيئة المنزل والغذاء لهم.. وهم ينعمون بدفء حنانها..
 وقلبها الكبير الذي يحمل.. جراحات... وأوجاع... وذكريات..
 لن تعود.. لن تعود..

obeikandi.com

المطر المسافر..

أطلقت ساقبيها للريح تخطو بسرعة رهيبة... نظراتها مشتتة والقلق يتفنن في رسم خطوطه عبر تقاطيع وجها المرهقة، تترقب هذا الكم الهائل لعله يقل ولكن!.

لم تستطع الانتظار... حاولت خوض المعركة مع المجاهدات بما تبقى لهن من آمال، كانت في يوم ما ترفرف عبر أحلامهن الوردية... دست جسدها الهزيل داخل الزحام حتى التحمت الأكتاف بعضها ببعض محاولة الوصول إلى القاعة الكبرى، فهناك آخر خيط يمكن الإمساك به...

ما هي إلا لحظات حتى أطل وجه مرهق يهتف: دراسات إسلامية..5. وارتفعت الملفات الخضراء العتيقة تتزاحم للوصول إلى فوهة القارورة، وبدأ الصراخ وطلب الإغاثة...

صوت من الخلف «نحن صائمون ارحمونا وآخر... أنفاسنا تتقطع». كانت عبر الأمواج مرة تصل إلى الباب وأخرى تتراجع حسب قوة الدفع الهائلة التي تتلقاها من الخلف.

هناك ظل قريبٌ من تلك المشاهد يحاول ترجمة ما يجول بداخل كل واحدة تجاهد لنيل هذا الشرف... فمن يدري لعل هذا الحماس وهذه الهمة تنتج إبداعاً أو تنظم أسرة... من يدري!.

لفت انتباهها صوت قادم، إنها لواحدة بإحدى يديها ملف وعلى الأخرى طفل، ووراءها صوت بكاء الطفل الآخر أزعجه هذا الجو وهذه الوجوه!.

كانت تجاهد بأطفالها حتى اقتربت منها عاملة آسيوية سلمتها الطفل الأول وأمست بالآخر وغمست نفسها داخل هذا الموج!.

أطلَّ الوجه المُرهِق من جديد... عربي... عربي تشابكت الأيدي بالملفات في قتال عنيف، وتم هضم جزء منها داخل تلك القاعة.

تقدمت تلك الأم المجاهدة ولكن هناك ما يشغلها... يقلقها، إنه صوت طفلها وهو يستنجد «ماما أنا خائف»!!

التفتت باتجاه مصدر صوته ثم نحو عنق الزجاجة... صرخت مليية نداء، وانسلت من تلك الأمواج... احتضنته... وقبلته وانصرفت.

وهذه أخرى تسير يتلبسها الارتباك، تطبق بيديها الاثنتين على الملف في فزع... اقتربت منها وبكلمات بعثت بأوصالها الدفاء... شعرت بالارتياح وهي تحاول التعبير أمام من استوقفتها عن مدى الاطمئنان لها، والإحساس بأنها تريد أن تحكي لها كل ما مر بحياتها من ظلم وإجحاف... فقالت: تزوجته ورضيت بالحياة معه ومع أسرته المتواضعة مراعاةً لظروفه الصعبة...

كنت صغيرة ومرحة ومتفوقة، وأتى من يطلب يدي من طرف قريب لي له محاباة عند أبي؛ فوافق دون علمي... لم أكن أعني أي شيء مما يدور حولي من أحداث، واقتنعت بكلام زوجة أبي وهي تصف لي حجم السعادة التي سأحياها بجانبه ووالدته وأخواته... وتم كل شيء، ومضت الإجازة

وسط انبھاري بأجواء الأسرة الجديدة وكلمات المديح التي نلتها منه ومن والدته؛ ولكن لم يدم الحال على ما هو عليه، حيث تغير كل شيء بمجرد أن طلبت منه أن يوفر لي مستلزمات الدراسة فلقد تبقى أسبوعان.

كان القرار الذي اجتمعوا لأجله هو محاولة الحيلولة بيني وبين صفوف الدراسة التي تعلقت بها منذ الصغر، وكانت ملاذي الوحيد بعد الله، وتم لهم ذلك حيث أحسست بحركة غريبة أفزعتني وأدخلت الرعب في قلبي فما هذا... كان الجميع فرح...

أنا ذات الرابعة عشرة الطفلة البريئة أنتظر طفلاً يبكي ويضحك بل ويحبو وينادي «بماما»!.

أفقت من المخدر وكأني بطوفان ضييع، أرى الممرضات حولي يبتسمن في تعجب من هذه الأم الصغيرة، وزادت دهشتي عندما أقبلت إحداهن تحمل طفلي وهو يبكي، لقد أصبت بحالة هلع، وألم شديد في بطني الذي ما زال منتفخاً وحوله رباطات وشاش كثير وقطرات حمراء كانت لدم خرج عبر الجرح...!!!

لقد بكيت بحرقة... تمنيت أن تأتي أمي من عالم المجهول الذي رحلت إليه منذ زمن لأغرس رأسي الساخن في صدرها وأتففس عبق عطرها الحنون. وبكيت وبكى من حولي من الواقفات وأبعدن طفلي عني!.

وتمر الأيام وأحاول التأقلم مع وضعي بعد أن رفضت زوجة أبي استقبالي في منزل أبي بعد رحيله، وجلست مدة تعبي تحت رحمة والدة زوجي وسيطرتها... تذوقت مرارة الوضع بصمت، وتكررت ولاداتي على

هذا المنوال نفسه... حتى صار عندي حصيلة من الطفولات، وتحطمت أمالي، فجمعت أحلامي وطموحاتي وأطبقت عليها في صندوق عتيق.

وأتى يوم كان الفاصل السعيد في حياتي، وخرجت ونثرت ظفائري من جديد بفرح طفولي، وتوجهت لصندوق أمالي حيث أشرفت أمام ناظري الشمس من جديد، ودبَّ الحماس في أوصالي فبكيت أمامه ورجوته أن يسمح لي بمواصلة ما تبقى لي من مراحل، ووافق بعد جهد على مريض بشرط أن يكون سرّاً بيني وبينه وألا يصل لوالدته وأخواته، ووافقت وتم استقبال أوراقي وأتممت ما تبقى لي، والآن لي هذه الأمنية بعد أن تراقصت أحرى في عبر «الجزيرة» وكان لي شرف إشراقها عبر صفحاتها، كنت كمن حصلت على دنيا جديدة وعالم مليء بالأمان حتى تلبسني نوع من الفخر فدنوت من مرفأ ذكرياتي؛ ووجدت زورقي، ولو أنه متصدع بعض الشيء إلا أنه استطاع حملي، وها أنا استقلته عبر أمواج البحر الهائج وقطرات المطر المسافرة التي تتساقط على رأسي المحموم فتغسل آثار دموعي وتسقي قلبي لتتجلي همومي، وأنظر عبر الغروب بانتظار إشرافته من جديد.

سر الالفندر...

جلس خلف المقود وفي صدره صراع مريع..

شريان الدم المنطلق نحو قلبه لا تستقبله العضلات.. كأنه العزوف عن كل شيء، أحس بشيء من الاختناق، ها هو الطريق القصير ينتهي به إلى قاعة أفراح كبيرة جداً..

شاسعة جداً بحجم المساحة التي صارت بينه وبين من كانت في يوم من الأيام رفيقة دربه.

عائلته.. بل قبيلته كلها لا تعترف بشيء اسمه مشاعر!!!

توقفت السيارة الفارهة التي كان يقودها، ونزلت والدته وأخواته بينما طلب منه والده النزول بقسم الرجال جنباً إلى جنب وهو يشيد برجولته وجسارته للتراجع عن رفضه حضور حفل الزفاف.

جلس بين الموجودين.. في المقابل له جلس العريس..

تفحص قسماته.. وجد أنه في العقد الخامس من عمره..

لم يكن بحاجة لمزيد من الأطفال، فقط يريد السكن إلى رفيقة تشاركه بقية ما كتب له من حياة..

هوت نظراته صوب الأرض وهو يتمتم بأسى ليتني لم أنصع لأوامر

أحد.. ليتني لم أستجب ورضيت بقدري..

لمزه والده بحدة وهو يعلم بقرب انهياره حتى استقامت جلسته ورسم على محياه ابتسامة باهته.

في القسم الآخر من القصر دخلت والدته وأخواته، تفاجأن بموعد «الزفة» فرأيها فلة وسط حديقة زهور تخطو على وجل، تتلبسها نظرات الخذلان.. والإحساس بالعتب وأشياء أخرى...

اصطدمت بنظرات واحدة من أخواته وكانت أقرب الناس إليها وهي التي سربت خبر نتائج التحاليل بأنها لا تستطيع الإنجاب أبداً، وأن العائلة تضغط على أخيها للانفصال.
توقفت برهة..

وسط الضجيج.. وسط عتمة البخور الذي ملأ الجو وحوّله واقع أحلام متضاربة معكرة يشوبها نوع من الاستجداء... الاستغاثة، لم تسمع أي صوت خارج عن ذاتها أبداً كأنها لحظة سكون وهي تبحر... تتعمق بأيام سابقة في حياتها كأنها الآن..

إلا أن الأولى كانت بها فرحة مستبشرة، تتمنى اللحظة التي تجمعها بمن أحبها واختارها، وأحبهته وأصرت على انتظاره، ولكن..

لم يكن يخفى حتى على الجبال الشاهقة ذلك الزفاف الأسطوري في تلك الليلة.

وكان الكل مبتسم.. فرح، يدعو لهما بالوفاق التام، ولكن يبدو أن الأمانى غالباً ما تتحول إلى سراب، أحلام وردية نهرب إليها عبر غفوتنا لنعيش لحظات من اللاوعي.. ونحن نتقلب بين ردهاتها ودهاليزها..

حتى غيومها ورشقات المطر فيها تلك الليلة كانت بالنسبة لهذا الفرح
كشاهد عيان على السعادة.. !!

كانت كمن يحاول عمل «بروفة» للقاء الجديد القادم.. وتساءلت..
كيف يمكن اصطناع المشاعر... كيف أستطيع ألا أظلمه قلبي لا يمكن
أن ينتزع من بين أضلعي لأي كان، فقد أحببت لمرة واحدة، لن تتكرر أبداً
وهذا هو الإخلاص.. هذا هو الحال وأنا بقرارة روعي وجوانبها وزواياها
أقر بهذا الحب الشرعي فكيف بأخي يحتني بإصرار على الخوض بغمار
الحياة وأن أحب وأخلص.

أنا لا أستطيع أن أصطنع حتى وإن انفصلت عنك كنت له في يوم من
الأيام زوجة! لم يوقظها من التضاربات المنتشرة في كيانها غير لمسة ندم
ودموع تسربت رغماً عنها..

إنها لوالدة زوجها السابق وهي تبارك لها طريقها هذا..

شهمت وتابعت المسير حتى استقر بها المقام على الأريكة الوثيرة..
تعالت الدفوف، واستعرض أمامها زمرة كبيرة من السيدات أحلى
الرقصات، وكأنها على يقين تام بأنهن لا يعلمن ما يخلج بأعماقها من
غربة..!!

دارت الأيام وحاولت التأقلم مع حياتها الجديدة بعدما استلمت طفلين
هما بقية الحصيلة السابقة لزوجها قبل رحيل زوجته..

كانا هما سلوتها وجل اهتمامها، فأحسنت إليهما محاولة نسيان الماضي
في حياتها..

لم يكن زوجها ينسى لها فضلاً وهو يرى أطفاله وقد أشرقت وجنتاهما بالصحة والسعادة، فأغدق عليها من الحنان والرعاية بما جعلها تحاول عمل ما يسعده..

أما هي فقد كان القدر يخبئ لها مفاجأة لم تكن في الحسبان عندما كبر الطفلان وصارا رجلين.

دخل عليها ذات يوم يخبرها بعزمه على تزويجها بمن اختارهن هو وسمع عنهن من أخلاق والتزام..

استعدت للذهاب؛ فكان عشاء ذات يوم اصطحبها وهو لا يعلم شيئاً.. ودخلت منزلاً فخماً تنتشر في حديقته أنواع من الأزهار برز في أكثرها نوع معين كانت بالسابق تحبه ويحرص زوجها السابق على جلبه من مناطق بعيدة حتى إنه جاهد لزراعته لإرضائها.

أدخلتها خادمة أنيقة إلى بهو المنزل وجلست على أريكة تنتظر أصحاب المنزل، إلا أن في قلبها ناراً تزداد اشتعالاً وألماً وحنناً ممزوجين بغربه فظيعة.. شيء.. إحساس لا تعرف معناه..

لم تستطيع تفسير ذلك إلا عندما برزت لها قسمات عتيقة لا يمكن نسيانها، إنها والدة زوجها السابق..

ارتبكت.. سلمت.. بكت رغماً عنها وهي تعتذر بأنه ربما أن زوجها قد أخطأ بالمنزل..

لحظات ودخلت فتاتان في سن واحد لهما الملامح نفسها يشوبهما نظرات التعجب وهما يريا جدتهما تبكي وتلك السيدة تبكي..

عندما علمت هي بأن والدهما قد رحل بعد زواجه من إحدى الفتيات بأشهر... أصيب بهزال وضعف فصار له سكنات بعد زفافها ورحيلها عن المنطقة، وكانت سلوته الوحيدة هي تلك الحديقة الغنية بالأزهار، فكان يطيل النظر إلى نوع منها حتى توقظه قطرات الدموع المتساقطة على وجنتيه وهو يندب حظه، ويتمنى أن تعود رحلته منذ بدايتها ولكن...!

وتمضي به الأيام فيلزم الصمت ويتبين بأنه يعاني مرضاً لم يمهله كثيراً فتوفي تاركاً بأحشاء زوجته طفلتين.

كتب الله بأن تكونا من نصيب هذين الشابين..

تم كل شيء وهي في كل لحظة تدخل بها هذا المنزل تخرج من بين أعماقها آهة جريحة وهي تنظر إلى هذا النوع من الزهور ولا يعلم سره بعد الله غيرها هي فقط.

عاشت بقية عمرها تتقلب بين أنواع من الذكريات بعد رحيل زوجها واحتواء أولاده وبنات زوجها السابق..

وفي كل يوم كانت ترى قسمات تشير أشجانها بين ماضيها الذي رحل وحاضرها الذي يتجدد في كل لحظة..

obeikandi.com

مرارة الصمت..

كان تسلل الشمس في ذلك الفجر مختلفاً تماماً عن أي صباح سابق، فقد كانت خصلاتها الباهتة.. الخفيفة تنطلق بجنون محيط كأنها تبيّت خيراً غامضاً.

مدينة «.....» تقف شاحبة وهي تودع شهيدة العادات؟!؟

أطل ظل «سارة» تتلبسها حالة من الذهول واحتقار الذات وهي ترى الرجال يحملون ألواحاً من الخشب وقد تراخى عليها جسد هزيل يحكي قصة...!

في المقابل وقف صامت يتجرع الألم وحده والحيرة وهو يراهم يبتعدون محاولاً إظهار الرفض؛ فالتى معهم هي له وحده...

له حتى لو كانت مجرد جسد بلا روح.. بلا نبض أو حياة!

أربعه ما تساقط من دموع على وجنتي شقيقته «سارة» وكأنه ينصت.. يستمع القصة منذ بدايتها: في تلك القرية الصغيرة التي تبعد عن مدينة «.....» 90 كم كانت الأمور تسير فيها على ما يرام.. طبيعة خلابة وأناس طيبون... وجو مليء بالبهجة.

في أطراف القرية انتصب منزل العم صالح وبجانبه منزل أخيه عبدالعزيز وقد اقتسما أرضاً زراعية شاسعة المساحة تجود بكل ما يخطر على بال إنسان من ثمار...

وكان للعم صالح وأخيه أربعة أطفال لكل منهما اثنان نورة وعبد الله وسارة وأحمد، جمعت الأطفال الأربعة كل معاني اللعب والمرح والنشوة..

كبر الصغار إلا أن «أحمد» بدت عليه علامات التخلف ولو أنها بسيطة إلا أنه في لحظات كثيرة لا يعرف من أمامه فكان يضرب ويدفع ويهرب!

أكمل الأولاد العشرينيات؛ فكان لزاماً على والديهم النظر في مصالحتهم خاصة بعد أن لاحظ أبو عبد الله تعلق ابنه بابنة عمه سارة..

ومما ساعد على الاستعجال بإتمام الارتباط ما يتشعب بهذه القرية من عادات قديمة وهي أن البنات لابن عمها رضيت أم لم ترض، فلا يجروا على خطبتها أي شخص إلا بعد تنازل ابن عمها عنها وكأنها سلعة!

لم تسع الفرحة سارة وهي تسمع القرار من وراء الباب، إلا أن نورة التي شعرت بما يشعر به المحكوم عليه بالإعدام شهقت رافضة بأعلى صوتها، فلن تقبل بأحمد زوجاً لها أبداً..

فابن عمها أحمد ليس مثل أخيها عبد الله، كانت تخاف أحمد دائماً، فهو عبارة عن شخص متقلب المزاج، سريع العصبية، عريض المنكبين كبير الوجه، دائماً ما يفرد عضلاته بوجه الجميع!

بكت نورة بكاءً مرّاً وهي ترجو «سارة» بأن تساعدتها في منع هذا القرار، ولكن سارة وقفت بإصرار وهي تقول لا تحرميني من أمل عشت أتمنى تحقيقه في كل اللحظات، ويجب عليك التضحية.

في ذلك الصباح الباكر فتحت نورة عينيها وقامت بفتح نوافذ غرفتها الفارحة، وأطلت على الحقل الشاسع الذي يزخر بخضرة تفتح النفس لمباهج الحياة.. إلا أنها صارت تنظر لكل هذا الجو بنوع من اللامبالاة!

حتى زقزقة العاصفير ترجمتها لقصة حزن عميقة تتحدث عن إنسان
زج به بين قضبان الحديد ظلماً.

وبين متهاتات الألم صارت كل يوم تركز بنظرها صوب القادم، فربما
يكون القادم هو سبيل الخلاص من الدنيا بخطوات هدها الخذلان والشعور
بالرفض لكل لحظة يعيشها بجانب مخلوقات استطاعت بطرق عجيبة أن
تثبت عليه تهمة لم يرتكبها.

كانت نظرتها للعالم كله بأنه بحر هائج شاسع يجمع أنواعاً كثيرة من
المخلوقات وكلها لها هدف واحد هو العيش.. العيش فقط دون النظر لأي
شيء.. فكبيرها يأكل صغيرها.. وقويها يطمس ضعيفها.

كانت تطلق آهاتها عبر المروج الخضراء فتصوب نظرها إلى تلك
الشجرة الوحيدة وسط الحقل، إنها تقف في شموخ، أوراقها خضراء
مرتوية، أغصانها صلبة ترسو على الأرض بثبات.

لكن ليس حولها أي شيء.. الصمت يغلف المكان وهي تبكي قدرها
المحتوم.. فالغد القادم سينهي كل شيء بالنسبة لطموحاتها وأحلامها..
وتأملاتها.. مضى يومها مثقلاً بأنواع الكدر.

بينما ترى البشر والفرح يتلأأ من محيياً «سارة» ابنة عمها التي تخلت
عنها، بل جعلت منها كبش فداء لها ولأخيها ولم تكلف نفسها حتى مجرد
الإدلاء برأيها خوفاً من تعنت أبيها إن لم يرض بأخيها زوجاً لابنة عمه!.

في المساء ألبسوه البشت...

وداروا بالبخور حوله.. بل وهذبوا شعره ورتبوه وزفوه لها؟! كانت تجلس على الأريكة حولها أهلها وهي غريبة.. وفي نفسها كرامات مذبوحة وقلبها ينزف! قمة الألم ولحظات الضياع.

كانت لها عينان تلمعان بالحياة، شفاه جميلة طُلب منها أن تبرز من خلالها أسنانها حتى ولو كانت ابتسامة خذلان... حتى وإن كانت تعبيراً عن المرارة، فقط عليها أن توحى لمن حولها بأنها في قمة السعادة بينما هناك حرب ضروس تعبت بكيانها!

جلس بجانبها بعد أن صافحها والتفت إليها وهو مبتسم محاولاً تذكيرها به عندما كانوا صغاراً وكيف أنه ضرب ابن الجيران «فهودي» عندما حاول مداعبتها بلعبته الجديدة فأوقفه عند حده على حسب تعبيره بأن أفقده إحدى عينيه! وكم بذل والده من غالٍ حتى استطاع إقناعهم بالتنازل مقابل مبلغ كبير من المال!

قال لها: أتعلمين أن «فهودي» الآن طبيب عيون وفهقه بملء فيه حتى انتبه له الحضور!.

دقت الواحدة ليلاً فنهض ونهضت، زفا إلى منزلها وسط الدعاء من والدته له والدعاء من والدتها بأن يكون الله في عونها على ما كتب لها من نصيب!.

انبجج النور... ليكسو ظلاً كان يراقب العصافير عبر الحديقة دون ظلم.. دون قيود... لم يكن غير ظلها الحزين.

مضت أيامها هي وسارة، فكانت سارة تشع صحة وسعادة بينما هي قد غزا جسدها النحول، وكانت مسحة الحزن قد بدت تظهر لمن حولها!

لقد تعوّد الجميع على سماع صرخة تتطلق فجأة في أثناء سكون الليل.
كان ضعيف الإرادة يتخبطه الهلع.. يشعر بمن يطارده فيقفز فجأة
وينهال عليها بكل قواه، حتى كانت ذات يوم تغط في نوم عميق بعد سهر
ليالٍ متواصلة.

كان ينظر إليها وهي غائبة.. مسافرة مسبلة أجانها.. هاربة من
واقعه المر إلى عالم من اللاوعي!

تلبسه الشرود وهاج.. أتنه حالة الألم.. هناك من يصرخ خلفه..
يخيفه.. يوحي له بأنها ليست له.. ستهرب.. لا تحبك؟!
فينهال عليها بضربة أفاقته للحظات ثم غابت ثانية..

جرى راكضاً نحو والدته يستجد.. إنها تنزف... حول خديها
الشاحبين دماء!

حاول الجميع إسعافها وعمل لها ما يلزم.. غادرت المستشفى هلعة...
تدهورت أكثر فأكثر، قرر عمها ومشاعر الإحساس بالذنب تعذبه الذهاب
بها إلى المدينة حيث صفوة الأطباء هناك.. عرضها واتضح؟
ورم كبير وخطير جداً يربض حول عنقها ماراً بالقلب وما حوله!

سمعت دون قصد ما بها! دخل عليها عمها ووالدها محاولين طمأننتها
بأنه لا يوجد ما يقلق.. وجدوها مبتسمة.. مشرقة على غير عاداتها...

فرحاً بذلك، ولم يعلموا بأنها ارتاحت.. شعرت بأن الخلاص قريب،
وأنها سترتاح للأبد؛ فرحمة الله واسعة، وصبرها على زوجها ترجو أن
تجد أجره في ميزان عملها!

عكفت على آيات الله.. قرأت.. حفظت حتى شعرت بالوفاء بالعهد
يقترب.. الله وعدها خيراً، ذات صباح أطبقت كتابها وتوسدت بكل ما
تبقى لها من قوة يدها وغطت.. هذه المرة غطت بنوم عميق...

إلى الأبد

الجحود

كان المنزل يعج بالمعزين...

جاهدت بثقل حتى استطاعت أن تقف بصعوبة.

خطت خطوات فسقطت وهي ترى ابنها البكر يحاول فك اشتباك

بين إخوته!!.

جرى نحوها وساعدها على النهوض حتى توجهت إلى غرفتها وتوضأت

متجهة إلى سجاداتها، فلم تزل كلمات شقيقتها ترن في أذنها: عند أي هم

اتجهي للصلاة... ارفعي يديك إلى الله... «يارب».

حتماً ستجدين الحل... ستفرج قريباً...

وإن لم يكن فستشعرين براحة القلب وسكون النفس.. بل الإبحار بكرم

الله ورحمته التي شملت عباده أجمعين...

صلّت حتى تراخى جسدها وأطلقت لنظرها العنان صوب لا شيء في

الوجود... وطافت... تعمقت... رحلت إلى الماضي في حياتها...

نعم لقد كان «يحبني» لا أنكر ذلك... كان أسير جمالي، بل كان لا

يستطيع البعد عني لحظة واحدة...

وزاد فرحه عندما بدأت ثمرة هذا الحب تتحرك بأحشائي... لقد

اشترى له سريراً قبل وصوله بأربعة أشهر، وكان لا يرى جميلاً يخص

مولوداً حتى يقتنيه...

حتى حان موعد الولادة وكم تفتت الدنيا بعينه عندما أخبره الطبيب بأن هناك خطراً ما ربما أتعرض له والوليد، لكن رحمة الله واسعة، حيث ملأ صراخ «فهد» الغرفة ونزل يشق طريقه المليء بالأفراح.

ولم يهدأ له بال حتى دخل عليّ وقبّل يدي حامداً الله على سلامتي أولاً وسلامة طفلنا.

وكبر «فهد» وتبعه إخوانه وأخواته وكبر منزلنا ..

كان لا يبخل عليّ أو عليهم بشيء، فكل غالٍ هو لنا حتى أصبحنا مضرب مثل لكل من حولنا.

ويدور الزمن! وتمضي بنا السنوات بين أتراح وأفراح، وهذه حال الدنيا..

في يوم لن أنساه ما حييت حين تبدلت حاله، فقد بدأ السهر وهو الذي يغضب إن حاول أحد منا ذلك... وشيئاً فشيئاً دبّت الخلافات بيننا، صار يسافر كثيراً... كل يوم في سفرة بحجج واهية، وكم أحزنتي وكان همه على قلبي كثقل الجبل عندما راقبته فوجدته يجمع صلواته وأحياناً لا يصلّيها بحجة «عفا الله عما سلف»؟ وأنا أشعر بأن في قلبي وكبدي ناراً تلتظي.

قال لي يوماً: سأقترن بأخرى؟! فضجت مشاعري الملتاعة وتلبسني الضياع والكدر حتى لامسني ما يشعر به المريض بمرض عضال عندما يخبره الطبيب بأنه مضطر لاستئصال كبده.

وبكيت وهو يداعبني بقوله هل تصدقين ذلك؟!.

وتدور الأيام وأنا أرجوه بالألا يسافر السفرة الأخيرة لأن قلبي يصرخ... يقول له لا... لا تفعل.

لكنه قال إنها صفقة... ليته سمع حديث قلبي... ليته.

وصباح فجر حزين رن جرس الهاتف ليخبرنا بالنبأ الذي زلزل
أحشائي وأصاب أولاده بحالة من الذهول.

لقد كان واضحاً ما ألمسه منه بالأشهر الماضية من عدم اهتمامه بي
وبأطفاله وضجره منا... ولكن!

كنت أهيئ الأسباب المقنعة لأولاده ولو أنني أعرف بأنها ليست كذلك.
والآن... الآن انتهى وفي قلبي صفحة حب بيضاء له... الآن يجب أن
أدعو الله له بالرحمة وأن يغفر له ما جناه في حياته.

وهذه الأيام كأنها سبحة عابد أجدها تمضي «حبة... حبة» وأنا أتقلب
بين الخوف على ما بيدي من أمانة وبين القلق عليه وقد ضمه التراب بما
جناه إن خيراً فخير وإن...!

أبكي لحالي أوقاتاً كثيرة عندما أجدني فقدته وفقدت اهتمامه بي
وعطفه عليّ وعلى أولاده!!!. وكيف وصل حاله إلى هذا الشتات.

نسائم الصباح الباردة تؤرقني، وصرخة الحنين إليه وإلى صباحه
الباسم المشرق... لحظات ذهابي معه إلى البحر الذي أحببناه معاً.

كانت قطرات المطر المتساقطة على رؤوسنا بمثابة عرس جميل تشهد
عليه تتابع الموجات، وقد زينتها تلك الرشقات.

واليوم عندما أعيش لحظات خيالي المنطلق عبر حزني الدفين
وذكرياتي الخالدة معه محاولةً تخطي أوجاعها أجد شبح «سرّه» يهجم

على فؤادي ويغرس أنيابه ومخالبه كي تتلاشى ذكراه، ولكن لا... ولكن لا هل يستطيع الدم أن يسير بلا شريان؟!

هل تجرؤ الأنفاس أن تنطلق عبر الماء؟!

لم يبق غير أيام ويكمل رحيله الشهر الرابع.

سأدعو له... سأبني له مسجداً.

تك... تك صوت الباب أيقظها... قطع عليها ما بقلبها من هموم وإصرار وعزيمة!.

- من...؟.

- «نورة» تعالي يا ابنتي ماذا بك؟!

- هناك سيدة تريد محادثتك؟.

هللت وجمعت لباسها حول صدرها ويديها وخرجت.

كانت «الثانية والثلاثين» أو يزيد قليلاً.. بيضاء... شقراء، قد وجدت الأصباغ طريقها نحو خصلات شعرها.

سلمت وجلست تحضن طفلة لم تتم عامها الأول، تلملت مدة ثم فجرت الموقفاً. قالت: بصراحة أنا زوجة «أبوفهد» وهذه ابنته وقد كنت معه في أثناء سفرته الأخيرة، وقد عرفت بأن الصفقة تمت وأنا الآن لا أريد غير حقي الشرعي، فلن أبقى زوجته بالسر كما كان الوضع في حياته، وهذه الطفلة ابنته أتيت لتسلميها؛ لأن الطريق أمامي ولن أدفن نفسي بتربيتها!.

انتصبت «هَيَا» واقفة حتى أحست بأن هناك بالداخل صوت ارتطام عبت بمشاعرها وأحاسيسها وحتى حواسها فأوقفها... فلم تعد تسمع لدقائق ولا ترى أمامها غير وشاح أبيض كأنه غيمة شتائية قارسة حالت بينها وبين الوجود.

أطلقت زفرةً تلاها بضع قطرات مرة وهي تحمل أوجاعاً تسربت عبر أوصالها المنهكة، لم تستطع الكلام... حتى الدموع تحجرت في حلقها وكأن أحداً يضع حول رقبتها حبلاً متيناً ويضغط عليها!.

التفتت نحو ابنتها وهي تشير إليها: إخوتك... إخوتك!.

ودخلت غيبوبة سرمدية لا تعرف إلى أين... ولماذا... وكيف حصل هذا الجحود!.

obeikandi.com

وأبحرت راحلة....

كان الغروب بالنسبة لها زائراً حميماً... وموعداً مهماً.

فقد أضفى الظلام على الجو مسحة السكينة؛ فهدأت الأصوات وتوقفت الحركة نوعاً ما.. أتمت صلاتها وقامت متوجهة إلى غرفتها المتواضعة..

أغلقت الباب لتستقبلها تلك الحقيبة السوداء التي تحوي بداخلها جميع أنواع الهموم... فتحتها لتشرق أمامها بنهاراتها الماضية فتتزعق القناع من فوق وجهها فتتضح إشراقها الجذابة وهي تتصفح تلك الوريقات القديمة المختلفة بصور وقصاصات مبعثرة... كان هذا كنزها التي تعيش سعادتها بجانبه.. استرجعت.. وكأنها أحداث فلم درامي تدور لقطاته في معترك الحياة..

ها هو المنزل... خطت خطوات نحوه..

عبر الدهليز الممتد من الباب وحتى المقدمة الفارحة، كانت تسير بثقة.. هي تلك جزيرتها السعيدة المطمئنة...

ونشوة تتجدد كلما اقتربت من أصوات طفولية وهي تعبت بمجرى للماء المتجمع من قطرات المطر الشديدة...

أدارت ظهرها... انحنى... حملت صغيرها وهي تفيض حناناً...

كانت أطرافه باردة ووجنتاه حمراوين، وفي عينيه خوف وبرد.. وأشياء أخرى لا يعرف معناها غيرها هي..

ضمته .. استنشقت رائحتها فنام بنعيم ..

وضعته في سريرته ودثرته جيداً .

اتجهت إلى آلة الخياطة وجلست وهي تتادي على بقية الصغار بأن يكفوا عن العبث بالماء... وبدأت تخط...

لديها عدد ليس بالقليل من الفساتين أحضرتها سيدة إليها، وكانت لعروس ستزف قريباً ..

كانت تعمل على تهيئتها بأحسن حال ولم تعلم ما تخبئه لها الأيام ...

كانت في قلبها فرحة؛ لمساعدة زوجها على مصاريف الحياة ..

إلا أنها ممزوجة بنوع من المرارة، أتمت الخياطة بعد أيام متواصلة بلياليها .. ونهضت بثقل وهي تشعر بأن أخطبوطاً من الأوجاع قد توزع عبر أضلعها ..

نامت ليلتها وهي مبتهلة تحكي له عن جمال الملابس وأناقته!!!

أوماً برأسه وتمتم بالدعاء لها ..

كان ذلك اليوم الأغبر عندما أخبرها عن تلك البرقية وضرورة سفره، فقامت وجلة .. تبتلع ريقها .. فبالرغم من بساطتها وبساطته إلا أن للحب بينهما تعابير أخرى .. أحاسيس أخرى يستطيع كل منهما إشعار الآخر بما يدور في قلبه من ارتباط وثيق .

حمل حقيبته الجلدية المتواضعة وهم راحلاً، فقد وصله خطاب من عمه المريض بضرورة حضوره ... مسرعاً ...

وصل مركز حافلات الأجرة «الاستيشن» مكان تجمع السيارات واستقل
إحداها، كان هو العدد المكمل لمجموعة تنتظر المسير، راودته أفكار...
وسرح بعيداً وهو يتساءل يا ترى ماذا يريد مني عمي؟

في الوجه الآخر للحياة كانت هي تتم ترتيب المكان وتعمل على رعاية
أطفالها وهي تبتهل إلى الله أن يطمئنها عليه.

حلّ المساء وخذل الصغار إلى النوم، وضعت يدها تحت صدغها وتوسدت
مرفقها محاولة الإطباق على خيط الراحة ولكن...

كان الخوف من الخوض في غمار النوم... الغيبوبة... الرحيل المجهول
الهوية يربعها.. يوقظها بين فينة وأخرى.

كانت كلما أطبقت أجفانها وطارت وداعات الحياة من أمام
عينها تراجع!

في الصباح الباكر كعادة أهل القرية، كان مجلس الرجال قد اكتمل
عدده بعد صلاة الفجر عند «عمه»، وكان بموضع حفاوة وترحيب بجانب
فراش عمه وهو في الرmq الأخير...

أمسك بيده وأمام الجميع قال بصوت متهاك: أشهد الله ثم حضوركم
على أنني زوجت ابن أخي ابنتي الوحيدة وهي أمانة عنده إلى يوم الدين!
لم تتضح الرؤية أمام عيني علي، وهو يسمع غرغرة الرحيل تسكن
أذنيه وقد فاجأه هذا الحدث والخبر معاً...

مضت الأيام الثلاثة الأولى وهو في حالة لا يحسد عليها من هم وألم
وأمانة لا يستطيع تحملها ولا كيف يتصرف بها..

وتساءل... كيف سيكون وقع هذا الخبر على مشاعرها وأحاسيسها وهي التي أراها كل شيء في حياتي..

نادى على ابنة عمه وجلس معها فوجد أنها مجرد جسم هائل يتحرك باحثاً عن أي شيء يأكله، لها نظرات حادة ومنطق غبي فرضي... فبكى بداخله وهو يحوقل..

اصطحبها مودعاً أهل القرية وهم يدعون له، وسافر بها إلى منزله.. في المنزل... في حيث الدفء... ورائحة الأمان والإخلاص... دلف من عتبة الباب فاستقبله الصغار بفرحة عارمة...

كانت تقف وراءهم في أبهى حلة كأنها رمز للتراث والحب الكلاسيكي الذي لا تشوبه شائبة..

ولكن... تغيرت ملامح وجهها وارتعدت عندما لاحظت ملامح غريبة لوجه قادم يحاول موازنة جانب زوجها بإصرار وتساءلت من...؟

قالت: «أنا زوجته على سنة الله ورسوله وابنة عمه قبل معرفته بك». توقفت... رفعت رأسها نحوه.. ضجت مشاعرهما.. صرخت بأقصى ما فيها من قوة... ولكن بداخلها... وبانكسار، صويت بصرها نحوه حتى فاضت بحور عينيها بمائها.. كأن أهدابها فراشة هاربة أعاققت حركتها قطرات المطر.... نحو المجهول.. منطلقة ما استطاعت من جهد... ما لبثت أن عادت إلى واقعها على وجل...

في الجانب الآخر حملت كتل الآلام وفرت خارج المنزل... ولكن!

هناك حب.. ارتباط لم تستطع تمزيقه... سمعت أصوات استغاثة،
سكنت قلبها الضعيف فهزلت راجعة نحو مصدر الصوت!
كان لعبث طفولي يتلاعب حتى بأنفاسها المتلاحقة..
حملت كتل الهموم التي كانت أوراماً من الشجن تشبع حجرات قلبها
وتسري بدمها بشكل سريع...!

عاشت أيامها وهي تتقلب بين أنواع من الجراحات والتهميش من جانبه
الذي تغير كثيراً!
وبحيرة... وبعثب، أفاقت يوماً على رحيله من حياتها رحيل بلا رجعة...
وكانت وجهاً لوجه أمامها بعدما سيطرت على كل شيء.. تلفتت..
طرقت أبواب بيوتات صغيرة مازالت في بداية نموها فخافت أن تتوقف
سعادتها، وارتعب قلبها فقررت البحث عن مأوى يضمها وذكرياتها
بحلوها ومرها..

فكانت نهاية مطافها في إحدى الدور بين بناتها اليتيمات.. كمساعدة
لفن الخياطة وهي تصحو صباحاً لتعد نفسها بالمساءات المقبلة كي تمتطي
زورق الذكريات.. وأبحرت راحلة...

obeikandi.com

قلوب تتنفس الحب...

انفصلت عنه بعد انقشاع الضياع، واتضحت أمامها الرؤى حين أراعتها
حياته، وتاهت خواطرها بعد الصدمة...

ما بين الرفض رفضاً باتاً لإعادة التجربة والتزام الصمت! عندما
تقدم ذلك الإنسان.

دخلت حياته... لم ترض لها عرساً هي ووالدها ووالدها وما تبقى من
أشقاء.. «حفلة عشاء صغيرة»..

قالتها وهي تلملم ما بقي لها من همة... وعزيمة خوفاً من التراجع..
تربعت على كرسي أنيق.. بسيط، تحمل على عاتقيه ثقل يدها المتلاشي...
دلف من باب البهو... التقت عيناها بعينيه رأت فيهما رجلاً ملتاعاً...
أحاطت ملامح وجهه خطوط الحزن.. والحرمان.. والفقد؟

جلس... التفت إليها... بدأت تحاكيه تتمدد.. ارتاحت نظراته التائهة
نحو الماضي بأعماقه... تلاشى الخوف في قلبه فسكنت أوصاله الطمأنينة.

رحلت معه.. في الصباح الباكر كانت على دراية تامة بكل تفاصيل حياته..
وحتى أطفاله الأيتام، كان في قلبها شوق... همة... حماس لمشاهدتهم
ولهم... ورتق جراحتهم... في قلبها كثير من الحنان... الحب...

طلبت منه رؤيتهم... أصابه ارتباك... خجل... صمت وهو يعدها خيراً..

رن جرس الهاتف.. كانت والدته تصر على حضورهما اليوم وتناول غداء
الوليمة معاً.. قفزت فرحاً لعلها تجدهم... ذهبت... لم تر أطفالاً...

انتهى الغداء... وأصررت على الذهاب للمنزل وليس للفندق...

كان لها ما أرادت... دخلت... وجدتهم.. كانوا خمسة، كان لأعينهم
بريق.. نظرات زائغة.. خائفة.. أكبرهم بالعاشرة.. طفلة ارتسمت على
شفتيها ابتسامة خوف باهته، قالت الأخرى من هذه يا أبي؟
هل هي أستاذة.. أم...!؟

اقتربت الصغرى حبواً.. ثم خطت نحو والدها وتعثرت... فسقطت وبكت..
وهي تمص أصابعها حتى وصلت إليه.. رفعت يدها.. حملها.. ضمها!.. التفتت
يميناً.. كان هناك طفلان واحد في التاسعة والأخر في الرابعة من العمر وقد
التصقا جنباً إلى جنب محاولين إيهاام الجميع بانشغالهم «بالبلاستيشن»
ولكن الصغير يسرق النظر بين الحين والآخر بصمت.

انحنت نحو الصغيرة التي تركها واستدار ذاهباً لطارق الباب..
حملتها.. تمردت لاطفتها.. أخرجت لهم بعض الحلوى..

كانت في كل لحظة تحاول الاندساس عبر مقلتي كل واحد منهم...
تتحسس من خلال أوجاعها وأحاسيسها الرطبة كل حالة قلق يمر بها زمن
الثواني في أعمارهم الغضة... حتى الصغرى.. حتى الصغرى لم تياس أو
تجفل عندما نظرت منها..

خافت من حضنها أن يكون مرقد مرآاة أمام الوجود..

خافت بحسها الطفولي أن تكون مجرد هدف للترقب والانغماس في
وسطهم الصغير للوصول إلى غاية!

لو علمت حجم قلبها المليء بالحب الصادق.. بالحنان.. بالتضحية التي لا ترجو من ورائها غير الوصول إلى الطريق المؤدي إلى الجنة.. ورضى ربها ومرافقة الرسول صلى الله عليه وسلم لما جفلت.. لما رفضت حضنها العطر..

ولكنه تصرف طفولي طبيعي ممن تغيرت عليها رائحة والدتها فجأة... كانوا شغلها الوحيد وهمها الكبير لاستدراجهم إليها..

كم ودت أن تصرخ بالفضاء ويتسرب صوتها عبر قلوبهم قبل آذانهم وتقول بأنها تحبهم... بأن لكل واحد منهم جناحاً كبيراً من الحب والإخلاص باسمه. كانت تعمل على نظافتهم نظافة تامة... رتبت شعرهم المتدلي بلا تصفيف.. عطرتهم... اطمأنت لأوضاعهم فدخلت المطبخ حاولت إجراء بعض التعديلات بموجوداته...

بعد لحظات خرجت وهي تحمل شطائر شهية.. جلست وسطهم وضمت الصغرى بعدما عملت لها روضة تهددها حتى نامت، شعبو قناموا..

للمرة الأولى بعد رحيلها ينامون بنعيم..

تأملت الصغيرة «فوز» وهو (اسمها المصغر)... لها رموش غزيرة وشفة دقيقة وبضع قطرات تسلت عبر مقلتيها الصغيرة نحو الخارج.. وقد استسلمت لغدها المجهول... ترضع أناملها بحرص وكأنها جزء من الأمان.

اطمأنت عليهم وخرجت... إلى السوق.. اشترت أجمل الثياب لهم جميعاً وعادت مسرعة... كان قلبها يخفق بشدة حتى رجعت... انتصف الليل... انسلت من فراشها ودارت بردهات المنزل... تلمست آثار.. عثرت على علبه صغيرة تحوي منديلاً وقارورة عطر.. كانت ملفوفة بشكل دقيق

ومخبأة بعناية في أحد الأدراج... سمعت حركة... اختبأت بإحدى الغرف...
كان عزوز الابن الأكبر... يمشي بحذر حتى وصل، اتجه نحوها.. فتحها
اتخذ زاوية الغرفة وضمها؛ كان يستنشقا وهو يهمهم... غلبه الناس
فنام... تقدمت خطوات انحنت استلت الأشياء من يده وأمسكت به...
ساعدته حتى وصل إلى سريره.. دثرته جيداً قبلته فنام.

في الصباح الباكر... عند الشروق سمعت أصواتهم... لقد فتحوا
عينهم اليوم أحسن من قبل.. إلا حصة فإنها لم تصح باكراً كباقي الأيام
الماضية بل غطت بنوم عميق كأنها أحست بنوع من الأمان وعدم تحمل
مسؤولية إخوتها الأيتام..

جلست بالقرب من سريرها.. عبثت بشعرها الناعم المضرر.. وعندما
فتحت عينيها؛ انتصبت واقفة وهي تجول بالغرفة بنظراتها باحثة عن
شقيقتها الصغرى..

هدأت من روعها ودعتها لتناول الإفطار وهي تبسم... فالطفلة
الصغيرة نامت ليلة البارحة في حضنها... غمست وجهها الصغير
بصدرها.. سكنت حركة حصة وهي تحاول إظهار الاعتذار لنورة زوجة
أبيها الطيبة..

إلا أن نورة ضمتها وهي تقول لها: من اليوم وأنا بمثابة والدتك لا
تحملي هما.

كان عبد الله قد حضر بعدما طلبت منه فحص المركبة لكي تأخذهم
بنزهة بحرية.. ركب الجميع وهي تحتضن «فوز» التي بدأ يتلاشى لديها
مص أناملها؛ بعدما أحست بالأمان وسط أحضان دافئة وأنفاس عطرة..
طيبة كأنها نسيم بارد استنشقه الصغار فأروى ظمأهم...

أوراق تائهة...

صابر...

كقطع غيوم تربعت وسط السماء السوداء برزت قسماتهم، ترى في
ملامحهم البراءة.. تقراء في نظرتهم الراحة الأبدية.. الخلود، إنهم راحلون
إلى دنيا السلام... نائمون نوماً أبدياً لا ينغصه قلق أو هم أو خوف؟!
كانوا يلعبون... يمرحون... وفي يد أحدهم قطعة من خبز وفي فم الآخر
قطعة من فاكهة..

لم تعد ترعبهم أصوات المدافع، فكانت الأرض وقت اهتزازها... وقت
زئيرها مجرد موعد للدبكة، عمدوا على أن يجاروها حتى تتناغم أصواتهم
الغضة الصغيرة مع صوت القذيفة...
هو عالم... هي دنيا..

كان ينظر بعضهم إلى بعض كأنهم ملائكة من نور، كل واحد منهم
يلقي بالتحية على من هم بالرحيل الآن ويعدده باللاحق...
في الوجه الآخر للحياة جلست القرفصاء، استعرضت ملبسه التي
اختارها للعيد... تأكدت من حلوله في كراسة الواجب...

نظرت إلى الغد من خلال أشعة شمس سقطت سهوا عبر فتحة نافذة
مهترئة من جراء القصف، انتصبت واقفة ناديت بأعلى صوتها...

صابر.. صابر هناك خطأ في الحل تعال وصححه... نادت مرة أخرى...
صابر تعال وارثد ملابس العيد فقد لا أراك وقت حضوره...

العيد... وقت حضوره!

لم يعد لدينا عيد.. لم يتسع عالمنا السرمدى لفسحة ولو قصيرة...
للحظة فرح مغموسة بمرارة الأوجاع... صابر.. هل صليت قبل أن تنام...
هل أطبقت جفنيك وجسدك طاهر طهارة قلبك ذي الأحد عشر عاماً..
هل سافرت أحلامك الوردية صوب الغد البعيد قبل سفرك هذا...؟

صدمة...

أفاقت على طرقات الدفوف.. الليلة فرحك، أبهرتها الألوان..
ملأت نفسها الغبطة وهي ترى كل هذا لأجلها.. كل الحاضرين احتفالاً
وابتهاجاً بها..

دخلت حياته.. كانت كاللبن الأبيض، صافية.. طاهرة... نقية لم
تدنسها مغريات الحياة... كانت بالنسبة له عالم ملائكي.. حار بينها
وعالمها الناصع وبين عالمه المعتاد... كانت له حبل النجاة لولا تدخل ما
حوله من شباك البحارة!

حملت أمتعتها ورحلت.. رفعت وجهها بتقاطيع طفولية إلى السماء..
تمنت بقرارة نفسها أن ييسر لها الأمان... الاطمئنان... رأت بصيصاً من
نور بعيد نوعاً ما...

تبعته... تبعته... تبعته... لكنه أتعبها... أتعبها... أنهاها جعلها أشبه
ما تكون بورقة تحاول الصمود والإسماك بفرع مستقيم حتى لا ينتصر
على عزيمة نفسها فتخور قواها وترى جميع الفروع معوجة!!!

رحيل...

صدرت حركة لها أصوات تتم عن موعد فرح لذلك المنزل الخائف..
اجتمع الأفراد حول مائدة بسيطة، ولكنها تضم لقمة تسد جوعاً ولو
أنها على أصوات طرقات كأنها إيقاع قبيلة مغولية تحتفل بكبش للتو أسرته
وأشعلت النيران حوله وبدأت الرقص!

كانت تجلس... ترفع يدها الصغيرة.. تدس أناملها الدقيقة اللقمة في
حلقها وفي نظرتها إحساس المودع... لم تمهلها القذائف أن تمضغها...
اختلطت قطرات دمها بالطعام عندما طاشت من جبينها الصغير ذي
السيح سنين وهي ترفع سبابتها وكأنها على علم بموعدها... استشهدت
على مرأى من والديها...

كأنها تقول لا وقت للطعام...

وداعاً.. هناك حيث الراحة الأبدية لا قذائف... لا دخان... لا أصوات
ترعب القلوب وتعصر الأفتدة.. اللقاء غداً..!!!

ندم...

كتبت لها....

عزيزتي () طوال تلك السنوات والأشهر وأنت تتظنين لي بمنظار
الجمود والأنانية ولم تتوقفي عن مذمتي لحظة واحدة حتى نشرت كثيراً
من البلبلة بين فرقنا وأنا صامته، وسيل من الإحساس ينتابني بين لحظة
وأخرى فأكنتم وجعي وأجفف ما استطاع أن يفيض عبر مقلي التائهة..
المصدومة بصدافتك، وأكظم كثيراً من الألم كي لا أدع للأورام بداخلي
فرصةً للانفجار..

وأجدك اليوم تقفين أمامي بضعف... بندم... بإحساس المسيء بحق
بريء من تهمة لفتت له حتى لا ينجح.. حتى لا يصل..

وأقول لك هنيئاً ما حققته من نجاح بعد سعيك لوضع عشرات كثيرة
أمامي، فلم يعد يهمني أن أصل، فقد خفق قلبي بشدة، وهزلت حركتي من
ثقل الهموم.. وخفت حماسي وتلاشى طموحي فلم يعد أمامي متسع من
الوقت كي أوصل السير.. وداعاً.

خذلان...

موقف...

سارت عبر طرقات الحياة تعزف لحن الوفاء من خلال ناي حزين
كان يرافقها... كانت تحاول ترجمة أوجاعها من خلال هذه المقطوعات
كي ترسم الابتسامة على الشفاه الصامتة... حاولت فك رموز الحيرة....
القلق الذي سكن أضلعها.. لم تستطع!.

رحلت إلى عالم آخر مليء بأشياء كثيرة.. كبيرة انغمست بأعماقها...
ولم تنس تلك العيون الصديقة وهي تبكي لفراقها... انغrust بوجودها..
فكرت بالعودة إليها... حاولت ولكن...

عند وصولها عند اندساسها عبر تلك الأرواح لمست جفافها... اقشعر
جسدها فلم تكن دافئة كما كانت بل تبدل حالها... صارت تنظر إليها
بحقد... وبنظرة أخرى.. اتهمتها بالجمود... صدمت لتبدل حالها...
حزنت لذلك...

علمت بأن هناك من نشر السم بين القلوب...

دمعة على خد الزمن...

في الغرفة المقابلة لغرفته لم يكن يعلم بأن هناك أوجاعاً تمتزج بها مرارة... شموخٌ قد انكسر منذ أشهر معدودة... ولفظة كبده الصغيرة؟! كانت آلام المخاض شيء فضيع بالنسبة لهزلها.. دارت بها الدنيا حتى كادت لا ترى لغرفتها سقفاً..

تذكرت حين كان الفاصل الوحيد بين منزلها تلك الحديقة الغناء التي شهدت أشجارها الوارفة أجمل الكلمات وأندى العبارات والوعود... تذكرت كيف كان يحلف أغلظ الأيمان على صدق نيته وتأكيد وعوده.

وبعودةٍ إلى تلك اللحظات عندما كان قلبها الصغير وحسها الضعيف يرى كلماته درراً تتناثر حولها أطلقت أهة غريبة كأنها نهاية الهواء في رثيتها.. تخرج جزافاً نحو المجهول، نحو الفضاء...

ساعاتٍ مرت كأنها دهر كامل يتقطع به أنينها فتغيب عمَّن حولها دقائق ثم تعود فتري كل ما في مكتبتها من كتب ومذكرات... ورسائل بائته يسكنها الصمت والصقيع؟!.

لحظاتٌ وفجراً صوت «الوليد» كل حقيقة، كان لزاماً عليها أن تصمت.. معلناً لكل من حولها الدليل الذي يدين ابن عمها بعد أن رفض إتمام الزواج والسفر إلى الخارج بحجة إتمام تعليمه؟!.

تأملت تلك التقاطيع الصغيرة.. كان صوته يغزو قلبها قبل أذنيها.. لم تكن كبيرة...

دارت بعينها كشاطئ علا مده متعدياً الحدود، تحاول إيضاح ما فيه..
أجمتها المفاجأة.. فانتفض جسدها الصغير ووالدتها تحمل الطفل وهي
بحالة ذهول بعد أن خلصته منها!

وهن قلبها الضعيف.. بكى قلب الطفلة خوفاً على صغيرها من الغياب..
البعد... خوفاً على نفسها من العقاب.

في الخارج دارت معركة حامية بين والدها وجدتها حين زمجر متوعداً
بقتلها.. متسائلاً عما يجري في الداخل.. متسائلاً عن والد الطفل.. من
والد الطفل..؟؟

وصمت.. بل انهار عندما تسرب اسم ابن أخيه إلى أذنيه وهي تنتحب..!
نهرته والدته وهي تقول: أتذكر حين رفضت فكرة ضم منازلكم
بحديقة واحدة.. أتذكر حين اتهمتني بكرهي لإخوتك من أبيك.. هل
علمت ما كان يخيفني.. لقد لمح بطلبها حين كانت بالتاسعة بأنها له
عندما تكبر وصمت!!!.

وماذا بعد هل يعتبر تلميحه أدناً له وشرعاً للارتباط بها دون علمنا!!!
هذه ابنتك.. بل طفلك وها هو طفلها وأبوه هارب... شارد فماذا
أنت فاعل؟. انقلبت أحوال المنزل؛ فساده الوجوم وتبدلت السعادة إلى
شقاء حتى عزم على الرحيل منه بأسرع ما يمكن وهو يتوعد ابن أخيه
بأفطع عقاب!!!..

أما هي فقد أصاب جسدها الهزل وبدأت تذبل كما يذبل فرع ريحانة
بين الرياحين.. فهي تصحو لتبكي وتتأمل حالها متسائلة: لماذا كل هذا..

لماذا يهرب مني.. أين هو الآن حتى يعترف بحقيقة ابننا.. حتى يكون لي الحق بالعيش بسلام ؟!

لا أستطيع مقابلة والدي الذي يكرهني... حتى الصغير أكاد أسكت نبضه وأكتم أنفاسه حتى لا يسمع بكاءه فيقتله.

تساءلت في حيرة وألم يموجان في أعماق كبدها وهي التي قد سمعت عن ثوب الزفاف وقد وعدا به فور وصوله... أين هو الآن؟؟؟

كانت تهذي... وقد تحولت كتلة من نار تصحولدقائق وهي تتمتم بطلب الرحمة من الله ثم ترجع إلى مغارتها السرمدية في كمد..

حتى أتى ذلك اليوم... كانت تتألم وتحمل فوق ما يحتمله بشر مثلها لم تتخط بعد الرابعة عشر..

فتحت عينيها.. استلت ورقة من تحت وسادتها وقرأت: سأعود.. وربما لا أعود أتمنى لك حظاً أوفر!!!

أطبقت عينيها وضمت شفتيها كأنما تنتظر القادم.. القادم، فقد كانت تحتضر..

obeikandi.com

مهاجرة بلا أوراق

شريفة...

أرعبها ما ينعكس أمامها من خلال المرأة؛ فها هي تهم بالذهاب إلى المدرسة، وما إن وقفت للاطمئنان على هندامها حتى أخافها ما ترى من تجاعيد عديدة تسربت عبر قسماات وجهها الشاحب.

وترجع بها الذاكرة للوراء فتسير بين طرفاتها المتعجرفة وتمر من أمام صباها إلى طفولتها التي استوقفتها لتشرح لها مراحل الخطأ الذي تخلل حياتها البائسة منذ ذلك الحين.

«شريفة» نشأت وسط أسرة بسيطة تتكون من أب وأم وأشقاء خمسة ذكور، لم يكن ترتيبها يحتل الأخير بل كانت أكبر القطاف.

وتمر الأيام والأب يخرج صباحاً ويعود مساءً مهدود القوى لكنه راضٍ عن حياته، وهو يشعر بأنه أدى رسالة في الحياة على أكمل وجه.

ويسير زورق هذه الأسرة على وتيرة واحدة... يكبر الصغار وكل منهم يشق طريقة، وحتى «شريفة» التي احتفل بها والدها بمناسبة تعيينها معلمة في إحدى المدارس صار لها عالم آخر من الأحلام الوردية.

ولكن... بدأ الملل يتسرب إلى أحاسيسها ومشاعرها وهي ترى والدها يرفض من يتقدم لها واحداً تلو الآخر، ويبسط حاجبيه في نهاية كل شهر ليستلم راتبها ويستجيب لكل مشاويرها البسيطة...

حاولت أن تتكلم فلم تستطع.

و ذات يوم فجعت برحيل والدتها الذي حوّل والدها بعد ذلك إلى إنسان عصبي المزاج، حاد الطباع، قاسي التصرفات؛ فبكت حتى أروت وسائدها دموعاً.

وتمر الشهور تليها السنوات ولا جديد؟

واليوم...

اليوم زفاف آخر العنقود... أخيها الأصغر، وبذلك اكتمل العقد إلا من حبة واحدة بدأت جنباتها بالضمور... ولا مستجيب، فوالدها يصر على عدم تزويجها وهو يتهالك في سريره بهزال أطبق عليه عندما كبر وضعف. ويرحل الوالد بعد صراع مرير مع المرض...

ويستلم الأخ الأكبر مهمته بعد أن باع المنزل ووزع نصيب كل واحد منهم وضمها إلى أولاده دون إعطائها حقها الشرعي الذي ادعى أنه مقابل عيشها معهم...!!!

وتُفاجأ «شريفة» بالمنوال نفسه، ولكن هذه المرة من أخيها «سعيد» وتحبط... وهي تعود عند أذان الظهر مرهقة محطمة بأسة لتستلم مهمة إعداد الغداء له ولزوجته الموظفة ولأطفاله، وتدخل غرفتها منهارة المشاعر تائهة النظرات...

كان يطرق الباب عليها ليصطحبها إلى أقرب صراف فيسحب رصيد راتبها كل شهر.

لم يخفَ على «أم سلطان» ما كان يجري لها من عذابات فقامت بمهمتها على عجل...!

اقتربت منها... حدثتها... تلمست عمق المعاناة التي تعيشها... علمت منها بأنها قاربت الثالثة والأربعين دون أمل... دون هدف... تسيير وهي تتلفت... تلهث... ترعبها أصوات خطواتها فتقف... تنزوي بصمت..!

انبلج الصباح وبدأت رائحة الشتاء تحمل نفحات عطره و«شريفة» تتقلب في فراشها، وما زالت بقايا الحلم تسكن بين أهدابها الممتلئة بالدموع... فقبل قليل كانت تحتضن والدتها وهي تبشرها خيراً!

قامت على عجل لتفرك أجفانها برقة خوفاً من تلاشي الحلم الجميل.. اغتسلت ولبست وأعدت الإفطار للجميع وخرجت إلى مدرستها..!

قابلتها «الخالة» وهي تبشرها خيراً وتهمس بأذنها أنه في الخمسين من عمره.. توفيت زوجته منذ عشر سنين ورحل أولاده وجحدوه فعاش يعاني الوحدة ونكران الجميل وهو يريدك.. يطلب رفقتك بما تبقى لكما من سنين!!

لاحظت عبر قسمات محياها خطوط الفرح فبدت وكأنها ابنة العشرين، ولكن لم تلبث تلك الإشراقة أن اختفت؛ فقد تراءت لها صورة «سعيد» ورفضه المعتاد، فعادت إلى الواقع المرير وهي أنها مجرد أداة للخدمة وجلب المال دون مراعاة لأدميتها المسلوبة!؟

ولكن «أم سلطان» تبهت إلى «عمة» لها لم تتجب وهي كبيرة بالسن وقد فرض على شريفة الذهاب إليها نهاية كل أسبوع وإعداد منزلها وتلبية

خدماتها، إلا أن تلك العمّة تختلف عن أخيها كثيراً وعن وأولاده، فهي تتحرق شوقاً لرؤية ابنة أخيها موفقة لكنها لا تستطيع عمل شيء، فقد هد قواها المرض وتخشى جبروت «سعيد» ومنعه شقيقته من الذهاب إليها.

لم يكن يشاظرها همومها مع عمته غير «أحمد» الأخ الأوسط لها، وهنا أمسكت الخاطبة ذلك الخيط، حيث رتبت لها خطة هروبها من ذلك المعتقل.

لم تنس «شريفة» ابنة أخيها «خلود» تلك النسمة الرقيقة وهي تدخل فرحة مبشرة بنجاحها بتفوق، ووالدها يمسك بالجريدة ويبارك لها ويسألها إلى أي كلية ترغبين الالتحاق بها!!!

لكن «خلود» وقفت فجأة بخوف وهي تقول لوالدها أنا سأكتفي بهذا القدر من العلم وألتحق بدور التحفيظ، فما فائدة إكمال دراستي وبعدها أكون بمثل ما هي عليه الآن عمتي «شريفة».

كانت كلمات «خلود» كالصاعقة على رأس والدها وهو يوزع نظراته بينها وبين شقيقته المظلومة «شريفة» التي ذهبت إلى غرفتها على عجل خوفاً من انفجار الموقف.

واليوم ها هي «أم سلطان» تعرض عليها فرصة ما تبقى لها من عمر؛ فهي تمسك بمؤخرة القطار وهو يسير بسرعة رهيبة.

اتفقت معها...

- اليوم يختلف عن غيره، اتصلي بعمتك، اعلميها بالأمر.

- اتفقي مع أخيك «أحمد».

– عند عودتك إلى المنزل كعادتك أعدي الغداء وهيئي المنزل، و فوراً إلى غرفتك أعدي حقيبتك.

- أحمد سيكون بانتظارك للذهاب إلى منزل عمته، فقد اتفقنا معها على أنها طلبتك لأنها مريضة...!

فعلت ما قالته لها «الخالة» وتم ذهابها إلى عمته وتهيأت على أكمل وجه، وحضر عريسها وأخوها وكتب كتابها وسط تضاربات من الفرح الممزوج بالقلق والخوف مما يمكن أن يكون.

اصطدمت نظرات كل واحد منهم بالآخر، فقرأت كل عين ما تحمله الأخرى من الألم وكأنهما كتاب مفتوح عاهدا بعضهما على إسعاد الآخر بما تبقى لهما من عمر....

أما «سعيد» فقد أفاق على الحقيقة التي قصمت ظهره فأطاحت به أرضاً وهو يرى شقيقته تهرب منه وتجتنب عالمه القاسي في وقت كان من المفروض منه أن يكون سندها في الحياة ويعوضها عما لاقته من إجحاف في حقها وطعن لكرامتها كإنسانة لها مشاعر وأحاسيس...

بقي شيء رحل بها إلى عالم السعادة.

اليوم...

وبعد خمسة أشهر من زواجها كانت هناك بذرة تتحرك في أحشائها..

obeikandi.com

رسالة إلى...

أقبل الليل... سكنت الحركة... ليس هناك غير أصوات أبواق بين
الفيئة والأخرى وبعض مواء القطط تبحث عما يسد رمقها..

في تلك المدينة.. في تلك الأزقة... كان يتربع منزل صغير.. ترفرف على
زواياه معاني السعادة.. بعض منغصات تتاب ساكنيه بين الفيئة والأخرى
ولكنها سنة الحياة.. فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ في
ذلك اليوم الكئيب الحزين كانت نورة قد أتمت أعمالها المنزلية وجلست
للراحة قليلاً؛ فسمعت طرقاتاً على الباب...

كانت والدة زوجها... أدخلتها مرحبة...

ما هي إلا ثوانٍ وتبعه طرق آخر.. إنه لوالدتها..

سعدت نورة أيما سعادة بهذه الزيارة وهي لا تعلم أنها الحد الفاصل
لحياتها وبقائها بمنزلها !!!

لقد كان بين الوالدين نقاش حاد تطور حتى وصل للتشابك بالأيدي؛
فضعقت نورة وهي تخرج من المطبخ ومعها القهوة...

لم تستطع فك الخصام إلا عندما حضر زوجها محاولاً تهدئة الأمور،
إلا أن الاشتباك قد رجع من جديد وأشد ضراوة...

وبدأ كيل الشتائم، وصدمت هي عندما سمعت زوجها يرد على والدتها
التي أفسمت ألا تجلس ابنتها في منزله بعد اليوم!!!

كانت هناك نظرة انتصار قرأتها نورة على قسامات والدته التي تربعت
 بفخر وهي تلمز والدتها باستهزاء، وذيلتها بكلمة هزت كيان المنزل عندما
 ألمحت بأن ابنها مرغوب لدى الجميع، وأنه من سواعد الحظ أن قبل
 بابنتكم للزواج منها.

ماج المنزل ونورة تطلب من زوجها رد اعتبارها، ووالدتها التي التزمت
 الصمت وقسماتها تطفح غضباً، إلا أنه لم يعر كلامها أدنى اهتمام.
 احتقنت العيون والقلوب حتى صار الابتعاد الوسيلة الوحيدة لرد
 الاعتبار، أقسمت والدتها أن تزوجها من يستحقها...

ولكنها هي قد سمعت بداخلها أصواتاً لأوراق سعيدة في حياتها..
 إنه إنسان متزن ويحبها، ودائماً ما كان يقول لها إنها النبراس الذي
 يسير خلفه دون خوف.

ولكن في تلك اللحظة المغموسة بالشیطان والانحيازية.. نسي نفسه
 وصار كمن يهذي بكلمات دون وعي.

توالت الأيام وتبعها شهور وهو لم يقدم خطوة واحدة... وهو يحترق..
 وهو تأخذ العزة.

تم الانفصال... تم المحضور... وهو مرغم.. وهو يتعذب...

بعد سنوات بسيطة...

تزوجت هي.. رحلت مع رجل آخر.. كان منزلها يغص بالخدم وكل
 ما تتمناه..

شعرت بالراحة وفخر الانتصار.. إلا أنها نسيت شيئاً مهماً... ٤.

كانت سيارتها الفارهة تشق الطريق... لكنها وحدها... دون مشاركة
منه.

ففي المقعد الأمامي السائق الآسيوي وزوجته.. وقد لبسا بأناقة.. وهي
بالخلف كسيدة سعيدة من الخارج.. ولكن أعماقها تموج بالحزن..
فها هو الطريق وكأنه هو الذي يسير بجانب سيارتها..

لاح بجانبها مبنى فخماً لمطعم راقٍ، كانت تتناول الغداء به مع زوجها
السابق... وها هي القهوة.. المكافأة... التي اتفقا معاً على الجلوس بها
وتجديد نشاطهما بعد أن ينام الصغار ويعود من عمله.. ها هي قطرات
المطر المتساقطة تهطل على قلبها الباكي تسكن في بجوانب الجفاف مع
حياتها الجديدة.. أين هو الآن..؟

إنه في إحدى الدول البعيدة يطارد الصفقات، إنه إنسان آلي... إنسان
الغى من كيانه شيء يقال له إحساس أو تبادل مشاعر...
لا يهيمه غير المال.. هي مجرد شكل أسكنه في منزله الفخم أمام
المجتمع..

تذكرت أطفالها الصغار التي أصرت والدته على أخذهم... تذكرت
منزلها الراقي بمجهودها الشخصي... شتان بين هذا وذاك..!؟
طلبت من السائق إرجاعها للمنزل.. وعند دخولها غرفتها كان رنين
الهاتف لا يتوقف.. رفعت السماعة.. صدمها أسوأ خبر في حياتها..
إنه زوجها السابق.. لقد توفى..

كانت والدتها تقول لها ذلك ولم تعلم أنها تتعذب..

تنتحب... تتمنى اللحاق به دون تأخير...

لم تعلم والدتها ما فعلت.. ولم تعلم والدته أنها هدمت حياة.. وشتت
أسرة صغيرة كانت تتأمل العيش بسلام...

أما هي فقد أصيبت بالهزال... بحزن كان يفترس كبدها يوماً بعد يوم
حتى تحول إلى أورام شديدة لا يمكن معها مواصلة الحياة...

كانت في لحظات الحمى والمرض تفيق من غيبوبتها السرمدية وهي
تتخيل أن من أمامها قسماته هو وليست المريضة فتحاول نطق اسمه
والاعتذار.. ولكنها تدخل في غيبوبة من جديد، حتى تنهى إلى أسمع
الجميع رحيلها وهي مبتسمة كأنها رآته ينتظرها هناك حيث لا مشاحنات
أو أوجاع تفرض على حياتهم نكد العيش..

ساعة رحيل...

أمنية...

كان لها ضفيران سوداوان كالحرير.. كان لها عينان سوداوان تلمعان
بذكاء وحيوية يكسوهما رمشان كأنهما غابة.. كان لها منطق واع.. راقٍ..
ينم عن حورية..!؟!

كان ألمٌ... لوعة... يتمخضان عن دمع حار غزير وتلك الصراعات
تعبث بكيان والدتها..

كبر الإمام... الصلاة على جنازة...

فاض نهر الأوجاع عبر مقلتيها، تذكرت رأسها الصغير حين ارتفع ليصل
نظرها نهاية المئذنة الحديثة... الكبيرة.. الأنيقة وهي تسأل: متى تبدأ
الصلاة في ذاك الجامع... كأنه الحرم... إنه شامخ شموخ ديننا يا أمي...

الأستاذة أمل قالت لنا: إن لقراءة الآيات نعمة تطرب الأذان وتبث
الطمأنينة في النفس، متى أقف لأصلي!...

بكت حتى غاب الصوت عن مسامعها..

واختفت الرؤية من أمامها وهي تودعها..

والجموع وهي تصلي عليها!!

دون أن تتحقق أمنيتها بالصلاة معها!!

أسماء...

بين رعشة الحمى والهزل: استعرضت الوارد... قرأت:

هل يكون صادقاً من يتحدث عن البرد وهو يتصبب عرقاً؟!؟

تساءلت كيف يكون الرد!!!

فهذه أسماء التي كثيراً ما كانت تحاول فك رموز حيرتها واقتحام عالمها الانفرادي..

تلك الفتاة الشامخة الملتزمة ذات التقاطيع الطفولية البريئة.

أمسكت القلم... أماطت لجامه... كفارس في رمقه الأخير يستجمع بقايا قوة...

كتبت: عزيزتي أسماء، قد يكون صادقاً عندما تسكن أوصاله رعشة المرض والانكسار والإخفاق بفعل فاعل، فتراه يخلق... يشعر بشيء من الحاجة إلى الهروب بعيداً حيث القلوب النقية... والأنفاس الطاهرة.. بلا زيف أو أحقاد أو سلطوية.. تبني تنفسها على نبض تلك القلوب.

ارتخت أناملها... فسقط القلم وعبث بناصع البياض بين مد وجزر وهي تفقد الهواء رويداً رويداً!

هزيمة...

كانت نشطة.. أعلنت الطموح وبلوغ المراد، بالرغم من عوائقها
صممت على الرحيل نحو الأفق.. هناك بالأعماق أشياء جميلة.. أفكار
فريدة.. لم تتخاذل..

وأصرت على خوض المعركة، قاومتها بشراسة.. أتمت مراحل كثيرة في
تعليمها.. ألقى بمرسائها الثقيل بكبد البحر.. لم يهملها هيجانه.. تقدمت
وبالرغم من تلك القيود بأرجلها سارت.. وعند الوصول إلى الهدف..
لا يفصلها عن تحقيقه غير خطوات أطبق أمامها حاجز خرساني كتب
عليه.. نأسف لعدم منحك الهدف..

هزيمة نفسية أخرى.. ماذا... لقد تأخرت كثيراً..

غاصت بأغوار نفسها المحطمة... أيقظتها رائحة.. حسرة..

انتحار..

إن قلبها يحترق..

أزفَ الرحيل...

هنا قسمات باهته كأنها السراب لا أرى غير تلك العينين الغائمة
بها، كأنهما بحيرة تميل إلى العتمة.. تراقبني في كل حركة وكل آهة
تصدر مني.. تتابع نبض قلبي بشغف.. بخوف يغلفه أمل اليأس من
تحقيق أمنية!!

دخل الغسق وأنا وجلة.. يتخبطني القلق.. القلق المغلف بالحزن.. كمن
أوشك على فقد نظره في هذه الحياة، تمر الثواني وكأنها دهر كامل..

لحظات أجد فيها الصمت المطبق.. الشعور.. الإحساس بالغربة.. الغربية
الكاملة لكل انتماء حولي.. لم تعد لأمنيائي أهمية، فلم تخالجنني حسرة
عدم تحقيقها..

كان الكل يراقب تصرفاتي وأنا أتخبط بذاتي التائهة أحاول إمساك
شيء.. أي شيء فيها.. فلا وجود للإحساس، ولم أستطع الوصول إلى
نبضها الضعيف..

تلونت الحياة أمامي وكأنها لعبة بيد طفل؛ وجهها نحو صفحة الماء
لتعكس أشعة الشمس بألوان متداخلة، تغلب عليها الزرقة، هكذا هي
لحظات الألم.....

أشارت إلي أن أقترب.. وفعلت.. أمسكتُ بأناملها..؟..

أطبقت على يدي بهزل.. مال جزء من شفيتها كمحاولة للابتسامة وإن
كانت متناقلة.. أوحى لي... لا تجزعي.. لا تجزعي..

فكلنا سنمر من هذا الطريق يوماً ما... راحلون.. نمتطي الأمل نحو غدٍ
آخر، ونحن واثقون بعدم تحقيقه.. عندما نرى تلك الشجرة في الصحراء
الشاسعة التي تعني لنا وجود حياة فنلزمها، نحط الرحال حول جذعها
وكلنا نتمسك بالنبض..

وعند لحظة المغيب نعي حقيقتنا.. لا نقول المرة..

فهذا ركب الحياة.. لحظات نفغو بها.. تتابع الزفير.. آخر الثواني
للواء برثينا نسلمه؛ لنسلم صفحتنا إلى أجلنا المكتوب...

كانت قد أطبقت عيناً وبقيت الأخرى هزيلة.. هناك رغوة حول شفيتها..
زبد النهاية.. هكذا علمت.. عندما تحولت أناملها إلى شتاء قارس..

أوراق تحترق !!

كان إلحاح والدي علي بالزواج من تلك الفتاة أمراً غير طبيعي، فقد كان يضع يده على قلبه كلما تقدم لخطبتها أي شاب، حتى أذعنت أخيراً وأعطيت أبي الضوء الأخضر!

لم أكن أعي ما يرميه والدي عندما أطل برأسه وهو يهلل بفرح شديد ويزف لي خبر الموافقة؛ فقد ذهب إلى والدها بعد صلاة المغرب وطلبها لي، وبعد سؤال والدها لها صمتت وقد كانوا يعرفون موافقة الفتاة من صمتها إذا تقدم لها خاطب...

تم كل شيء، وأنا يتلبسني الفرح لخوض تجربة جديدة ولو أنني لم أتخيلها في أي لحظة من اللحظات كأني شاب مقبل على الزواج ويتأمل ما يتمنى أن تكون عليه عروسته من صفات جمال ورقة وأخلاق.

توالت الأيام وحن موعد الزفاف، وفاجأني ما هي عليه من جمال أخاذ وحياء كان يكتسي محياها، فلم تجرؤ أن ترفع عينها إلى عيني مما زادها بهاء وفتنة، وانتهى الشهر الأول، تلاه الشهر الثاني، ثم الآخر وأنا في كل يوم يبهرني ما أكتشفه بها من مميزات؛ فبالرغم من أنها فتاة بسيطة وافقت أن تواصل تعليمها بعد زواجها بي، إلا أنها تمتلك ثقافة ليست بالقليلة.

ولكن.... ذلك الشموخ وتلك الأشياء الفريدة من حب وإخلاص لم يقنعاني، وقد كنت قد رسمت برأسي لمن سأقترن بها أن تكون موظفة ذات منصب عالٍ أو على الأقل خريجة جامعة حتى تفهمني حسب تخيلي.

ولم يمض على ارتباطنا سوى سنوات كان حصيلتها طفلين جميلين
نظيفين حتى انفصلنا؛ وهي التي لا أذكر أنها في يوم من الأيام سعت إلى
جرحي أو إهمالي، حتى إنها فضلت مواصلة تعليمها عن طريق الانتساب
كي لا تقصر بحقي وبحق أطفالنا !!!

وصدمت مني وصبرت حين استلمت ورقة الانفصال، واحتسبت وهي
تدعو الله بالثبات والعوض من عنده..

رحلت أنا عن البلدة التي تعيش فيها..

بل هربت من ذاتي الظالمة وبطشي الشديد مصراً على أخذ أطفالتي
منها وإيداعهم عند والدتي أمانة؛ مع التشديد عليها بالألا تعلم
والدتهم بمكانهم..

وتمضي السنوات وها هو المطار يستقبلني بسيئاتي وربما قليل من
حسناتي، وأعود عند دخولي منزلنا وسلام والدتي الحار عليّ وصدود
والدي عني لما بدر مني بحق ابنة صديقه جارنا..

يصفعني إصرار طفلي وهو يختبئ وراء جدته خوفاً مني محاولاً
الإمسك بيد شقيقته معه حتى لا أراهما!

ولأول مره في حياتي أصاب بإحساس فضيع بالندم، إلا أنني وإلى تلك
الوهلة لم أفكر بوالدتهم أبداً.

تلقت ذات يوم لأجد سنوات عمري تسابق الرياح دون هدف؛ فقررت
أن أضع حداً لذلك وفاتحت والدتي بعد وفاة والدي بسنتين برغبتني بالزواج
ومن الإنسانية التي أشعر بأنها تناسبني ومؤهلي الدراسي العالي فتفهم ما
أقوله وتناقش معي ما أطلبه منها من أمور مكتبية وعائلية..

وبعد تفكير وبحث أخبرت والدتي باسم عائلتها واسمها عن طريق شقيقة أحد أصدقائي المتزوجين !!

وحقيقة لقد كانت مواصفاتها كما تمنيت منذ زمن بعيد...

وتم كل شيء وزفت إلي وكدت أطيّر فرحاً بها، إلا أن الأيام تكشف الألقنة الزائفة...

فقد رفضت وجود أطفالي معها، وكان هذا شرطي فوافقت مرغماً وأنا أعتب على نفسي لماذا أصررت على أخذهم وحرمان والدتهم منهم..

ووجدتها أيضاً غير محترمه لأرائي... متكبرة... متسلطة كل ما يهمها راحتها هي وعدم اطلاعي على خصوصياتها كما تقول؛ فلكل إنسان خصوصيات، ويجب علي احترام ذلك لأنني إنسان مثقف وتعليمي عال.

كما أنني أصبت بوعكة صحية ألزمتني فراشي أياماً، فوجدتها تأمر الخدم بخدمتي وتذهب هي لعملها دون اكرات بي، وعندما تعود فإنها تخلد إلى الراحة، ودارت بي الدنيا وأنا أهذي من الحمى التي تلبست جسدي المنهك، وتراءت لي أم أطفالي بنظافتها وبساطتها وطيبتها وحبها المخلص لي الذي اقتلعتة من جذوره ودست على نواغم الورود الصغيرة فيه عندما بدأت تشق طريقها إلى السماء..

لقد رأيتها وسط أوجاعي وشممت رائحة حسائها الطيب اللذيذ وهي تسقيني منه، وتضع الكمادات على رأسي الساخن أو تتمتم لي بدعوات حارة بالشفاء العاجل، حتى وعندما يبكي واحد من الصغار فإنها تسارع لإشغاله بشيء حتى لا يتبعد عني، وأنا بهذا الوضع كان أطفالي بمنتهى الأناقة والجمال، فلم أشاهدهم منذ ولادتهم على وضع غير ذلك..

لقد ضجرت حياتي، حتى صوت الهاتف الذي لا يتوقف رنينه... حتى هو لم يبالي بما أشكو من أوجاع الجسد وآلام الضمير...

وعندما أحاول إخماده أو إبعاده عني فإنها تثور وتتكلم بطريقة رسمية بأن علي احترام مواعيدها ومن يتصل بها !!

بعد أيام مما أنا فيه صحوت من سكرتي هذه وقد قررت... عزمتم على شيء... بل كان قلبي يخفق بشدة كلما تذكرت زوجتي السابقة خوفاً من أن تكون قد ارتبطت بغيري.

لقد نفضت ما بقلبي من ظنون، وطلقت زوجتي هذه بل رئيسي وسجاني وخرجت من قيودها إلى الأبد...

وتوجهت على عجل إلى قريتي أسأل عن منزل العم «...» فلم أجده حتى جف ريقى ووتراءت لي الأرض هاوية..!!
وبحثت حتى قطعت الأمل بالوصول إليها.

وكبر أطفالي بعدما ضمنت طفلي الثالثة البائسة التي تنازلت عنها والدتها بسهولة إلى أطفالي الاثنين اللذين أخذتهم عنوة وقسراً من زوجتي الأولى المتمسكة بهم.

ويدور الزمن وتكبر البنات والولد وينخرطون بسلك التعليم مثل أقرانهم.

حتى أتى اليوم الذي كان بالنسبة لعالمي صفة أدب وتهذيب لكياني المتعالي، عندما دخلت ابنتي الصغرى ويدها ورقة قد احتل اسمها واسمي فقط أولها دون اسم عائلتي وهي تضم مجموعة من أدوية كتبها

الدكتورة لها عندما تعرضت لإغماء بسيط فحملوها إلى غرفة الطيبة، واتصلوا بها على عجل لتأتي وتتم كشفها، فكتبت العلاج وسط دهشة تلبست قسماً محياها الرقيق وقد خامرها الشك في تقاطيع صغيرتي التي أخذت مني الكثير... ووصفت طفلي تلك الدكتورة بالملك الذي ينشر الدفاء والحنان.

لقد هالني ما رأيت من ختم حمل اسم الاستشارية د «...» فاحتقرت نفسي وتفتت دراساتي العليا التي كنت أنظر إليها من خلالها، وعرفت أنها ختمت القرآن غيباً وقت محنتها بعد انفصالنا وحرمانها من أطفالها.

وعزمت على أن أنفض جسدي... وقلبي... وأحاسيسي من جميع ما علق بها من شوائب واستكبار.

فتساقطت خطاياي أو أرجو ذلك، وحفظت كتاب الله الكريم والتزمت الطريق السوي، وقررت، ولو عن طريق الدعاء بأن يخفف علي ما أنا فيه من وخز الإحساس بالذنب ويغفر لي ويساعدني على تربية أطفالي تربية حسنة.

فقد تعلمت درساً قاسياً، وفهمت معنى نظرة أبي ولكن بعد فوات الأوان.

obeikandi.com

الحلم الدافئ

تعالى صوتها منادياً...

نهض بفرع وتراءى له بأنها الحرب... صار يعرك أجفانه بشدة وبسرعة، فمازالت بقايا الحلم الجميل تسكن أهدابه ورائحة والدته تتسرب عبر أنفه الصغير.

هَرَوَل مسرعاً ليلي النداء؛ فلم تكن غير زوجة أبيه كالمعتاد تريده كي يذهب إلى المخبز. ويجلب لها بعض الأغراض من «المتجر» حتى لا يتأخر أولادها عن مدارسهم. فقد تعود على ذلك!!!.

خطف منها المبلغ وخرج على عجل، حتى إذا غاب المنزل عن ناظريه بدأت خطواته تتناقل وكأنه يشجذ الحلم الجميل بالعودة هو الآن بعيد عنها وعن صراخها ومعاملتها القاسية، ولكن الذي يذهب لا يعود... واليوم إذا انقضى لا يمكن أن يبدأ ذاته ثانية، وسيأتي غداً غيره، تشرق به الشمس من جديد... يحمل أحداثاً أخرى.

وقف أمام المتجر وصار يبخلق بالبائع والواقفين دون أن ينقوه؛ بكلمة فقد كان يعيش عالماً آخر... أحداثاً أخرى بعيدة عن جسده المتحرك ونظراته المنطلقة بلا هدف.

لم يفقه غير ارتطامه بإحدى العربات التي أمامه ونهر العامل له: «ألا ترى؟ استعد وعيه معتزراً وهو ينظر إلى ساعة الحائط المعلقة أمامه، فيخطف أشياءه ويطلق لخطواته العنان.

حتى إذا وصل المنزل لاهتأ دفع الباب ودلف منه وسط دهشة إخوته التي انتهت بقهقهة عالية وتأنيب زوجة أبيه له لتأخره.

وضع الأشياء على المنضدة ودخل الغرفة المجاورة فبكى ومسح دموعه حتى لا يقال له إنه طفل؛ فهو رجل يبلغ التاسعة الآن، ولكن الجوقارس وأنا جائع وهناك بأمعائي آلام شرسة ترسل إلى كبدي وخزاتها فيساعدها القلب المثقل... حتى تندفع عبراتها عبر بلعومي فتهل أمطار دمعي بالرغم مني!!!.

حدثته نفسه: اخرج فوالدك على وشك النزول من غرفته، اجلس بجانبه لن تستطيع مشاكستك أمامه على الأقل!!؟

خرج وهو يستقبل والده عند الدرج ولم يفاجئه شيء جديد!!

النظرات الغاضبة نفسها بلا سبب؛ وذلك الجبين المقطب عندما يراه.

جلس بقرب السفرة، وبدأت أنامله تمتد إلى الطعام حتى إذا ما وضع اللقمة بفمه صرخ أبوه بوجهه ألم تغسل يديك... ألم أحذرك بالأ تَأْكُل قبل غسل يديك!!!.

ازدرد اللقمة المرّة حتى بدت له كأنها قطعة صلبة، تدرجت عبر بلعومه بصعوبة بالغة.

نَهَضَ مسرعاً فلم يعد هناك وقت... حمل حقيبته والتفت مودعاً السفرة ومن عليها وخرج إلى مدرسته.

كان الطريق طويلاً، والمطر بدأ يتساقط كأنه أصر على مجاراة دموعه.
«ناصر» ذلك الطفل الصغير يحمل بقلبه ثقلًا لا تحتمله الجبال، سلوته
الوحيدة حين يختلي بنفسه ويسافر... يسبح خياله بين كتل الغيوم البيضاء.
تلك الغيمة تهمة... يصغي لهمسها تذكره نعومة والدته وتتسرب عبر
أنفه الصغير عبق ريحها...

وصل المدرسة وهو لا يعلم كيف؟! فقط عيناه وجسده المتحرك هما
من أوصلاه.

انتهى اليوم الدراسي، وأقل عائدًا، كان آخر أيام الدوام فغداً تبدأ
إجازة العيد... وصل إلى منزله فأحس بحركة غريبة وهمس!!!
تلبسه نوع من الحزن والإحساس بالغربة... شعر بأنه منفي بلا وطن...
بلا انتماء...

اقترب من أقرب إخوته الأقرب إلى سنّه وهمس بأذنه: ما هي الحكاية؟
رمقه بنظرة استهزاء وهز كتفيه ومضى.

دلف إلى غرفته وألقى بجسده الصغير على سريره وراح يفكر... لم
توظفه من غفلته غير «بدور» الشقيقة الصغرى حين دخلت عليه تقول: هيا
يا «ناصر» لماذا لم تجهز حقيبتك فبعد قليل سنسافر!!!

نهض إليها وقبلها وطلب منها مساعدته!!!

كان يجمع بعض أغراضه وكل ما يخص البحر...

«بدور» قالت إننا سنسافر إلى البحر ويجب أن أكون جاهزاً حتى لا تغضب مني «خالتي» ويفضب «أبي»!!

حمل حقيبته وهرول ليتخطى درج السلم بعجل... ويجد الجميع متحفزين الكل في عمل....

فأجأته خالته «فوزية» حين قالت له: جاهز هاه!! من قال لك بأنك سترافقنا؟!.

لم يستطع.... لم يعد يحتمل فليقولوا عنه طفل يبكي؛ فدموعه لم تعطه حتى فرصة للاختباء، أحس بالضيم والقهر.

كانت تلك الدموع المتساقطة غزيرة جداً كأنها مخزون عام كامل، لم يوقفها غير والده الذي ربت على كتفه وهو يخبره بأنه سيذهب إلى عمته أو خالته حتى عودتهم؛ لأن خالته «فوزية» غاضبة منه!.

التفت إليها باكياً ولأول مرة بعدد سنوات عمره الصغير صرخ بأعلى صوته:

- ماذا فعلت؟!... ما هو خطئي بحقك؟!.. لقد استلكت حتى أحلامي الدافئة في لحظة رعب من بين أهدا بي وزججت بي إلى الشارع في وقت لم تكن الشمس فيه قد بزغت بحجة واهية وصمت حتى ترضي علي... كرهت وجودي بين إخوتي وشددت علي العقاب عندما يتكلم أحد عن ملامحي التي أخذت الكثير من والدتي ولم أخبر والدي!
ماذا تريد مني؟!..

ماذا يرضيك ؟!!

اندفع بعدها إلى الخارج هائماً على وجهه لا يعرف إلى أين يذهب حتى
ثقلت خطواته وبدأت تلك الغيوم تستدرجه... تتثله من عالمه إليها فصار
ينظر إلى السماء ويشكلها... ويصورها حتى عثر عليها... نعم هي الغيمة
التي تشبه والدته... اقترب منها... مد أنامله الصغيرة إليها...
ما هي إلا لحظات وصوت ارتطام وصرخات كانت وراءه لم تكن غير
صرخات والده محذراً إياه من الشاحنة الكبيرة، ولكن لم يهمله غير
شيء واحد..

أنه راحل إلى الحلم الدافئ!!

obeikandi.com

ركب الراحلين...

كانت قرיתי تعج بكثير من الصالحين الأتقياء ولكن... البيوت مقفلة على جراحاتها... وعوزها.. بل وأسرارها.

كانت حياتي البائسة تحت سلطة زوجة خالي الجائرة، تزرع في قلبي كثيراً من الصبر والتحمل لأنني شعرت بما يشعر به الغريب حين يدخل البلاد وتصوب نحوه كثير من العيون علامات الاستفهام لقدمه.

في أول يوم لي في منزلها كانت تغلف نظراتها أشياء غامضة فهمتها بحسي الطفولي.. كانوا يقولون لي بأنه الحزن لرحيل والديك، ولكني ألمس غير ذلك، حيث التقت نظرتها مع نظرة خالي البعيد عنا منذ عرفت الحياة...

كانوا حائرين.. أين سيكون مباتي الليلة، من من الأولاد سيتبرع باستضافة هذه الطفلة الصغيرة البائسة وربما الأقل مستوى في نظرهم!!! حملت أمتعتي القليلة واتجهت نحو غرفتها... نعم دون أن أنتظر أن تفتك بهما الأفكار والأحاسيس بثقلي...

دلفت من باب الغرفة... كان موارباً وهي واقفة بيدها مجموعة من الملابس تحاول فرزها للكي.

التفتت نحوي.. بل نزلت لمستوى طولي وهي تحاول التخفيف عني مرحبة بلجوئي إليها... كان لعينيها بريق... شاطئ فائض.

همست لي... «أنا ماما خلاص حبيبي أنت ما فيه خوف»!!!

نمت ليلتي وقد فقدت رائحة فراشي التنظيف ولون غرفتي البحري
وهمهمات أمي وهي تطفئ النور بعد أن تتأكد من نومي.

ولكن لم أنس رفيقة طفولتي.. هدية أبي دميتي الناعمة ذات الشعر
الغزير، فقد حضنتها واستسلمت لغدي المجهول فاعل بعد العسر يسراً؛ لأن
رحيل والدتي ووادي فجأة من أمامي لم يكن بالأمر البسيط، بل أصابني
نوع من الحزن المغلف بالصمت، والتبلد ولو ظاهرياً أمام الجميع لكي
أثبت للجميع بأنني قوية وقادرة على التحمل..

حتى صوت بسملة أبي آخر الليل وقراءته القرآن بصوت شجي كثيراً ما
كان يطوف بذهني وأسمعه في كل لحظة هم أو حرج؛ فكان لقلبي الصغير
ذي الاثني عشر ربيعاً بلسماً شافياً من الآلام.

تأملت الحياة وأنا أفرح بانقضاء سنواتها وأعد نفسي بالحياة الأخرى
التي تجعلني سيدة منزل صغير ترفرف عليه أشرطة السعادة والتفاهم
والحب ولكن!!!

أتممت العشرين عاماً وهممت بالواحدة والعشرين لأصحو يوماً على
طرقات خفيفة عبر نافذة عالمي كأنها نقش.

نعم لقد دخل حياتي شاب في الثلاثين من عمره يغلفه الصلاح
ظاهرياً... يلتزم بأدب الحديث وحسن المعاملة.

وأزف إليه، وتمضي أيامي معه لتصفني حقيقة طبعه الجاف المنافق
حين وقف أمامي رافضاً إكمال ما تبقى لي من سنوات كفاح؛ فلم يكن

هناك سوى شهر واحد... بقيت ثلاثون يوماً على مشروع التخرج.. على تقديم امتحاني الأخير...

بحجة أنني تعلمت بما فيه الكفاية وأن (البكالوريوس) سيكون سبباً في إعطائي الإحساس بالمساواة به.

وجاهدته... حتى استلمت وثيقة تخرجي بمرارة والعميدة تبتسم لي بفرح مهنئة لنجاحي، وهي لا تعلم بما يختلط مشاعري من مرارة وألم ممزوجين بالشعور بالخوف والقلق على مصير وثيقتي هذه.

حتى هدأت العاصفة نوعاً ما واستقرت مشاعري وأنا أجاهد لأصل إلى ما في نفسه من ثورات بركانية نحوي.. أجده دائم التضجر من أطفالي... دائم الشكوى من وجوده معي ومعهم!!

أجده يصرح بأن يوم زواجه مني هي الغلطة الكبرى في حياته الكبرى المليئة بالطموح كما يقول؟!

وأتفاجأ به يوماً وهو يشد الرحال بحجة إكمال تعليمه بعيداً عن هذا العش الصغير!!

فأصمت وقلبي يحدثني بأن أبحث بين طيات الحياة عن مكان لي وهؤلاء الأفواه.. فقد اتضحت الصورة أمامي حقيقة لا حلماً واقعاً لتركيبة شخصيته الحاقدة.. الأنانية.

ويغيب... ويغيب ويطول غيابه حتى تناهى إلى أسماعي خبر حياته الجديدة؛ فأسأل ماذا كان ينقصني... لم يكن هدفه العلم ولم يكن هدفه شيء آخر يرفع به بنيان حياتنا الصغيرة!

لقد عرفت حياته الأخرى... زوجة بعيدة كل البعد عن وقارنا.. وعن عاداتنا النابعة من ديننا؛ زوجة أجنبية اختار الحياة معها بعيداً عنا. والتفت أبحث حتى أخرجتها من بين ركام الأشياء..

كانت تربض عليها خوفاً من الإتلاف.. نعم هي وثيقتي التي ستنتشلني من بين براثن الأوجاع.. وأخرجتها وكأنني قطرة مطر تائهة انسابت بين فروع الأشجار وتوزعت أجزاءها على أغصان الحياة! انخرطت.. وعملت.. ونجحت وأنا أحمد الله كثيراً على عدم توقفي في تلك الأيام.

وقفت أمام المرأة عندما رأيتها ذات يوم في مناسبة ولم يكن يعلم بحضوري ذلك الحفل!

قابلتها على أنني امرأة أخرى لا تنتمي لحياتها بشيء.. امرأة مطعونة بوجودها الجائر. حدثتها... وجدتها قالباً فارغاً مهترئاً، حاولت ترميمه بأنواع كثيرة من المساحيق الباهظة الثمن!!! بالطبع من جيبه هو.

تكلمت معها عن كل شيء، وفاجأني افتقارها إلى أبسط المعلومات وخاصة الدينية، فهي لا تملك إلا الفتات القليل كمظهر.. وقفت أمام المرأة أقارن بين قسماتي وقسماتها... ظهر لي كثير من الاختلافات بالطبع لصالح بلا أنانية أو تهيؤ.

تذكرت رفض زوجة خالي المستميت لمن تقدم لي عدة مرات وكانت بوادر الصلاح والهداية قد شكلته قلباً وقالباً وكان يتمنى الارتباط بي لتسير معاً صوب الخير..

وقبلتُ بهذا، لم أكن أعلم لم هذا الحقد الدفين نحوي.. لماذا هذا الإحساس بأنني سبب تعاستها طوال إقامتي.. بالرغم من أنني كنت أعيش عالماً خاصاً بي يتقلب وتدخل عليه كثير من التغييرات بحسب تنوععاملات وتبدلهن..

ولكن لم أنس صديقتي التي تعهدت أن تعاملني كأمنذ دخولي منزل خالي.. وهي التي أصرت على تمديد مدة إقامتها خمس سنوات لأجلي!.. حتى اطمأنت على أنني أصبحت ناضجة.. لي شخصية تستطيع الاعتماد على نفسها في الأوقات الحرجة!!!
وفهمت أنني اقتحمت مملكتها.. خاصتها..

فصممت على زجي بمتاهات هذا الزواج الفاشل!، لكنها الظروف هي التي دفعتني وسط أطفالها بالرغم من تجنبي التام للاحتكاك بهما أو بها. أو إعطاء الحق لنفسني الحق بالمشاركة بأي مناسبة تخص العائلة حتى لا تظهر عواصفها نحوي!

رجعت لواقعي فبكيت ولكن ليس أمام أطفالتي..

بل في غرفتي المليئة وبكراسات التصحيح ودفاتر التحضير وأنا أنظف قاربي وأمسح ما علق به من خطوط حائرة وخربشة جائرة، وأتوسط المركب ملقبة بمرساي تاركة زورقي يسير وسط بحر الحياة ليختار الطريق الذي يحفه الأمان ويغلف أجواءه نعمة النسيان لألتحق بركب الراحلين!

obeikandi.com

الفهرس

5المقدمة
71. أه يا ولدي
112. جراحات بلا موعد
173. جواز سفر
214. بقايا الأمس
275. شيطان من الدموع
316. المقص الأسود
357. البكاء بصمت
418. صرخة ألم
459. كرامات مطعونة
4710. أنفاس لا تعود
5111. دعوني ألتقط أوراق
5912. راحلة عبر مرفأ الذكريات
6313. أوراق متساقطة

14. رفعة..... 69
15. شاطئٌ يسكنه الصمت..... 75
16. شواطئ الدنيا..... 79
17. عزوز أحرف تائهة..... 85
18. الخذلان..... 89
19. عندما فقدت ذاتي..... 95
20. قلوب يملؤها الكدر..... 103
21. ليس إلا..... 107
22. مساحات الألم..... 111
23. أنا ومن بعدي الطوفان..... 119
24. ذكريات لن تعود..... 125
25. المطر المسافر..... 133
26. سر اللافتدر..... 137
27. مرارة الصمت..... 143
28. الجحود..... 149
29. وأبحرت راحلة..... 155
30. قلوب تتنفس الحب..... 161

31. أوراق تائهة..... 165
32. دمة على خد الزمن..... 169
33. مهاجرة بلا أوراق..... 173
34. رسالة إلى..... 179
35. ساعة رحيل..... 183
36. هزيمة 185
38. أوراق تحترق..... 187
39. الحلم الدايفيء..... 193
40. ركب الراحلين..... 199
- الفهرس..... 205

obeikandi.com